سوانح

أدبيّة

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ

١٩٨٩م

سوائح أدبيّة

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ
١٩٨٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حمداً لله، وصلاة وسلامًا على رسوله محمد وعلى آله وصحبه.

أما بعد: فهذه مقالات مجموعة كانت تائهة بين أوراق قديمة، وكان ظني أنها ستبقى كذلك حتى تأتي عليها إحدى آفات الأوراق فتبتلعها غير أن عناية أصدقائي هي التي بعثتها من مرقدها إذْ اقتضت من أعضاء النادي الأدبي أن يقدموا إليه شيئًا من إنتاجهم الأدبي في حيِّز محدود، ونطاق من الأوراق معدود، وقد رغبت فى أن ألبي النداء، فقدمت هذه الأوراق لتكون الصَّدَى لذلك النداء، فذلك أرفق بي، وأرأف بوقتي من الابتداء بكتاب ربما لا يكون فيه الغَنَاءُ بعد العَنَاء.

وهي مقالات لم ينشر منها شيء إلا مقالة واحدة.

وأنت أيها القارىء الكريم لئن فاتك فيها الاستمتاع فلن يفوتك منها الاطلاع على أنموذج من الكتابة الأدبية في وقت مبكر من مولد الحركة الأدبية في قلب جزيرتك العربية.

وإن شعرت أنه قد فاتك هذا، وذاك، فشكرًا لك على ما بذلته في قراءتها من ساعات أثيرة لديك ومعَذرة من مؤلف لم

يكن صاحب الرأي الأول والأخير في عرضها بين يديك. خار الله لك، وأصلح قولك وعملك. ووفقنا إلى أن نقدم لك صَالحًا يرضي ذوقك وتوقك. والنسلام.

المؤلف

الرياض:

«الكتابة»[1]

كنا جماعة من هواة الأدب و(الكتابة) جلسنا مجلسًا أدبيًا ونحن مخلصون للأدب. صادقون في رغبتنا فيه، حتى وصل الحديث إلى طريقة الكتابة، والشروط التي ينبغي أن تتوافر للشخص عندما يريد الكتابة.

وجعل كل واحد منا يعرض ما يراه من تلك الشروط، ويفَنِّد ما لايراه.

وكان ذلك كثيرًا جدًا. وكان البحث فيه متشعبًا جدًا، إلا أننا كدنا أن نلتقي عند نقطة واحدة بعد أن سلك كل منا طريقًا غير التي سلكها صاحبه تلك النقطة هي أنه لابد للكاتب إذا ما أراد أن يكتب أن تكون في رأسه فكرة عما سوف يكتب فيه، وليس ذلك فحسب بل لابد أن يكون مستحضرًا للنواحي أو بعض النواحي التي سوف يعالج الموضوع الذي يريد الكتابة فيه منها.

---

(١) كتبت في يوم الأربعاء ٢٧/١/١٣٧٠هـ الموافق ٨ نوفمبر ١٩٥٠م ونشرت في مجلة المنهل لشهر رجب ١٣٧١هـ.

إذًا لابد قبل الكتابة من أن يكون الكاتب قد رسم صورة عامة في ذهنه عما يريد الكتابة فيه.

هذا ما كدنا أن نتفق عليه، أو على الأصح ما اتفقنا عليه جميعنا، ولم يشذ عنا إلا واحد فقط، لأنه في نظرنا لابد للكاتب لكي تجيء كتابته في موضوع ما كاملة من جميع النواحي، مستوفية للشروط، لابد له من أن يؤمن في نفسه بالفكرة التي يريد أن يكتب فيها قبل البدء في الكتابة لتبدأ الحرارة والوضوح معه في مبدأ كتابته.

أما ذلك الواحد الذي خرج على إجماعنا فهو يرى غير رأينا، هو يخالفنا في تلك المسألة على طول الخط ــ كما يقولون ــ لأنه يرى أن الكاتب القدير. وهذا نعت لابد للكاتب الذي يقول: إنه يستطيع أن يكتب. وأن يجيد الكتابة في موضوع ما، وبدون أن يرسم فكرة واضحة محددة في ذهنه لذلك الموضوع قبل البدء في الكتابة.

هذا نعت ــ كما يقول صاحبنا ــ لابد لذلك الكاتب منه. قال: وحجتي على ما ذهبت إليه أن الكاتب القدير، الكاتب الذي يكتب بدافع من نفسه، أو بعبارة أخرى بدافع من قلمه ــ إن صح هذا التعبير ــ وأنا أقصد بقلمه لا اللدائن والحديد بطبيعة الحال ولكن المعاني والخواطر التي يختلج بها فكره.

الكاتب الذي ذكرت لا بد في صفته من أن يكون كاتبًا مطلقًا أي ليس كاتبًا مقيدًا كالكاتب الاجتماعي والكاتب الصحفي والكاتب السياسي أو غير أولئك. ذلك الكاتب يستطيع أن يكتب في موضع ما. وإن يجيد الكتابة بدون ضرورة أن يكون في نفسه فكرة واضحة محددة عن الموضوع الذي يريد الكتابة فيه قبل البدء في الكتابة.

ودليلي على ذلك أن الحياة بالنسبة للكاتب هي مجموعة موضوعات وبحوث ومواد يتصل بعضها ببعض، لا يوجد منها موضوع واحد ليس له علاقة بموضوع غيره ولكن تلك العلاقة قد تكون خفية لا يهتدي إلى كشفها إلا ذلك الكاتب القدير الذي ذكرته.

ذلك الكاتب يستطيع أن يكتب أول كلمة في الموضوع قبل أن يكتب عنوانه، وقبل أن يكون عنه فكرة محددة، بل قبل أن يكون له في نفسه وجود بعينه في تلك اللحظة.

وأقول: بعينه في تلك اللحظة لأن الكاتب وفكره ونفسه ما هو إلاَّ مرآة تعكس ما حولها فتنطبع فيها.

وقد يكون في نفس الكاتب بعض الموضوعات التي لا تبرز إلى ذهنه إلا بعد امعان نظر، وطول تفكير، ولأن الموضوعات

الحيوية ـــ كما قلت ـــ بمثابة حلقات متصلة تربط بعضها ببعض وشائج متينة، أو ضعيفة لا يكتشفها إلا من أوتي حظًا من النظر الثاقب، والعقل الباحث المُنقِّب.

فإنَّ بعض الأشياء التي قد يبتدأ الكاتب بكتابتها وهي لا تصلح موضوعاً للكاتب ربما أثارت موضوعًا صالحًا للكتابة، وربما أهاجت من أعماق الذاكرة مشاعر كانت كامنة.

فالكاتب القدير يستطيع أن يبدأ الكتابة بدون أن يكون له أقل فكرة عن الموضوع الذي يكتب فيه بعد ذلك، ولكنه يبدأ الكتابة بما يعنُّ له، أو ما يصادفه، أو عن شيء آخر معتاد في البيت ـــ مثلاً ـــ ثم يسترسل في الكتابة فيؤاتيه الإلهام، وتهطل عليه شآبيب المعاني حتى يضيق بها المقام. وحتى يترك الكتابة قبل أن تتركه دواعيها.

ذلك بأن الحياة كما قلت متشابكة، وإن كانت متشعبة، وقريب بعضها من بعض، وإن كان في بادىء الأمر بعيدًا.

يستطيع ذلك الكاتب مثلاً أن يرى لعبة ولده ولتكن السيارة الصغيرة عندما يخط أول كلمة، فيكتب اسم لعبة ولده، أو لفظها، أو وصفها، ثم يتدرج من ذلك إلى ما لا نهاية له من المعاني والمواد والميادين بدون أن يخرج عن موضوع الحديث عن لعبة ولده.

يستطيع ــ مثلاً ــ أن يتحدث عن نفسية الطفل، وأثر اللعب فيها، ويستطيع أن يكتب عن الفرق بين شعور الكبار وشعور الصغار في اللعب، وعن نمو مشاعر الطفل، وعن اختراع السيارات، وأن يقارن بين لعب الأطفال في الماضي والحاضر.

كل ذلك على سبيل المثال والإشارة وإلاَّ فالمواد والميادين أمامه كثيرة واسعة. ثم ليجعل العنوان بعد ذلك (لعب الأطفال).

هذا مثال واحد. ولن يعوز كاتب أن يجد الألوف المؤلفة مثله. أما إذا عجز عن أن يجد موضوعًا يكتبه أو موضوعًا يثير موضوعًا يكتب فيه. أو عبارة تثير موضوعًا، وذلك قريب من المستحيل، فإنه لن يعجز عن أن يكتب في موضوع الكتابة ذاتها، وفي عجزه عن الكتابة. وفي مقدرته عليها. وفي الأحوال التي تؤاتيه المعاني فيها والظروف التي تساعده على الكتابة، وذلك موضوع طويل يستطيع الكاتب أن يصول فيه ويجول، ويستخرج منه لا مقالاً ولا مقالين فحسب، وإنما عدة مقالات.

ولكن. لا تنسوا نعتي لذلك الكاتب بأنه الكاتب القدير.

نعم، إن حجة صاحبنا قوية، وإن ما ذهب إليه صحيح ولكن بقي أن نسأل صاحبنا سؤالاً واحدًا هو كم يظن بين الكتَّاب الذين تعارف الناس على أن يُسموهم كتَّابًا مثل ذلك الكاتب الذي ينعته بالكاتب القدير؟.

لقد سألناه عن ذلك فأجاب بأنه يظن أنه موجود فيهم ولكن بنسبة قليلة ولم نشأ أن نناقشه في مقدار تلك النسبة حتى حددها بقوله :

قد يجوز أنها الربع ولكننا سألناه بقولنا :

والأرباع الثلاثة الباقية من الكتاب: كيف حالهم؟

فأجاب قائلاً: إنهم ليسوا كتَّابًا قديرين فهم لم يدخلوا تحت حكمي.

قصة نجدية :

صفقة لم تتم!!![1]

مال عليَّ صديقي (ع) فهمس في أذني في مجلس حافل بالأصدقاء يخصني بذلك من بينهم قائلاً :

هل لك في رحلة شيقة قد رسمت تفاصيلها في ذهني. رحلة طالما قمنا بمثلها جميعًا، إنها إلى البرية إلى الصحراء. إلى حرية النظر إلى الأفق البعيد، والتحرر من رق هذه الحيطان الطينية المتآكلة، وإنها الفرار من هذه الأزقة الضيقة.

وإنها إلى ذلك هي التخلص من طعام في بيوتنا اعتدنا على أكله إلى طعام نصنعه وفق ما نشتهي إذا لم تكن فيه الجودة فإنه سيكون فيه التغيير؟

فقلت له: لقد وعدت فأنجز، ولقد شَوَّقْتَ فأوف. وسررت سرورًا عظيمًا فلم أكن أملك سيارة، كما لم أكن أملك من النقود ما أستأجر به السيارة وقلت: خير البر عاجله وحبذا التعجيل لأن للتأخير آفات.

---

(١) كتبت في يوم السبت ٢١/٢/١٣٧٠هـ الموافق ٢/١٢/١٩٥٠م.

وآفات التأخير قد تأتي من الجو الذي قد يتغير فيزداد برده ويهطل مطره، وقد تأتي الآفات من شيء أهم من ذلك وأنكى منه قد تأتي من عزيمة صاحبي فتهون، أو من رغبته في هذه النزهة فتتبخر. أو من نزوة من نزواته التي لا أعرف لها دواعي ولا تفسيرًا لدواعيها إذا عرفتها فيعدل عن ذلك.

وافترقنا وأنا على أحر من الجمر في انتظار يوم الخميس الذي ستتم فيهِ الرحلة وسنخرج من البلد إلى حيز الوجود (البري).

وأعد صديقي سيارته وهي سيارة من سيارات النقل (اللوري) إلا أن ذلك لم يفزعني كثيرًا لأنني سوف أركب معه بجوار السائق فأصبح في هذه الطرق البرية التي لم تختلف حالها عما تركها عليه آدم عليه السلام أنا وراكب السيارة الصغيرة ـــ إن وجد ـــ سواء.

وكان المكان الذي تقرر أن نذهب إليه مكانًا قفرًا يبعد حوالي ٥٠ كيلاً من بلدنا.

وكان مما قررناه أن نبيت ليلتين في البرية.

كان صديقي يحدثني بذلك، ويحدثني بالآمال العريضة التي عقدناها على هذه الرحلة الصحراوية في هذا الجو الذي

هو أول فصل الربيع وإن كانت لا تزال في الشتاء بقية تثبت وجودها آناء الليل وأطراف النهار.

وقال صديقي: لقد عقدنا مع السرور صفقة عظيمة ولابد من إتمامها. إلاَّ أنني كنت أشعر شعورًا غامضًا بأن هناك شيئًا خفيًا يحاول أن يفسد عليَّ هذه الصفقة. ولا أدري لماذا؟.

ووصلنا إلى موقف سيارته في زقاق عند بيته، وعندما أردنا المسير تذكرنا أننا لا نعرف جيدًا المكان الذي نقصد إليه. وإنه من المخاطرة أن يظل المرء يدور في الصحراء يبحث عن مكان مجهول ففي ذلك نفاد الوقود والنقود، وفيه مخاطرة أن تتعطل السيارة في هذه الصحراء التي لا يرتادها إلا عدد قليل من السيارات.

واتفقنا على الشخص المنشود، إنه رجل نعرفه معًا وهو رجل مضحك أو قل إن صحبته مسلية فرأينا أن نجعله دليلنا ورفيقنا..

وذهبنا إليه في بيته فأخبرناه فأجاب: بترحاب وطيب جواب إلا أنه أضاف إلى ذلك شرطًا قال إنه لابد منه في هذا الأمر.

واشرأبت أعناقنا لمعرفة هذا الأمر وذهب كل منا يفكر فيما قد يقوله ونحن عازمون على الاستجابة لكل ما يريد على أن لا

ينفرط عقدنا أو لا تتم صفقتنا. وكان أن أوضح شرطه بقوله:
إنني لا أطيق الصبر على الركوب في ظهر السيارة. إنني لا أستطيع إلا أن أركب مع السائق.

وبادرناه قائلين وقد فرحنا بكونه لم يشترط شيئًا ثقيلاً آخر: لك ذلك. فهيا إلى الركوب وأسرع يلبس ثياب السفر كما يقول وهي ثياب غليظة قديمة أهم ما فيها أنها غير أنيقة ولا نظيفة.

وعندما أقبل معنا إلى السيارة تذكرت شيئًا هو أين أركب أنا؟ إن مقدمة السيارة سيحتلها صديقي مع دليله. إذًا ليس هناك بدّ من أن أركب في محل المتاع على ظهر السيارة.

وركبت متذكرًا القول المأثور: ليس بد مما ليس منه بد.!
هذه واحدة.
وغادرنا البلد.
ثم وقفت السيارة، لقد تنحى السائق عن مكانه ليتعلم صديقي كيف يقود السيارة.
جلس في مجلس السائق، وقبض عجلة القيادة بيديه كلتيهما، ولكنه ظل يشتم السيارة لأنها ــ كما قال ــ صارت تروغ منه كما يروغ الثعلب من الكلب السلوقي المُدَرَّب.

نعم، جعل صديقي يقود السيارة فبدا لي أنها قد طربت من ذلك لأنها جعلت ترقص رقصًا عنيفًا صاخبًا لا ندري أعنفه هذا وعدم اتساقه من شدة الحب والحب لا يعرف الحدود؟

أم أنها تريد أن تهلكنا حتى تستأثر بصاحبها دوننا؟

وظل صديقي يواصل مأساته في قيادة السيارة أو على الأصح مأساتنا واستمرت حركات السيارة البهلوانية.

وظللنا وخصوصًا معشر ركاب الظهر نتقلب كما تتقلب الحبة على المقلاة.

ولما عيل صبرنا. وعجزنا عن الاعتماد على أية جهة من الجهات لأننا قد أصبنا من كل جانب برضة وخفنا أن تنقلب بنا السيارة بالفعل صحنا عليه صيحة رجل واحد: إما أن يترك قيادة السيارة وإما أن ننزل نمشي على الأرض فالأرض على سعتها بيننا وبين البلد أرحم بنا منه ومن سيارته.

وبعد لأي استطعنا أن نثنيه عن رأيه، وأن نجعله ينزل للسائق عن مكانه مكرهًا.

سارت السيارة تمشي كما يمشي غيرها من ذوات الأرجل السود، ورجعنا إلى أماكننا من ظهرها، أو على الأصح عرفنا في أي مكان نجلس فقد كنا من قبل لا نستقر في مكان!

ورضيت من الغنيمة بالإياب :
رضيت من الركوب إلى جانب السائق بالاستقرار أو بالركوب الطبيعي في ظهر السيارة الخشبي.

ووصلنا بعد فترة إلى المكان المنشود، ولم أكن أعرف أنه سينقلب إلى ساحة قتال بين الشقاء (المرجلة) وبين الراحة وإلا لاستقبلته كما يستقبل الجندي ساحة القتال.

وصلنا وكلي أمل في أن أذوق طعم الراحة بعد أن شبعت من التعب، وجعلت أحدث نفسي بأن كل الشقاء قد انتهى، وبأنني قد جُزْتُ الامتحان بنجاح (قاهر) وبأن آخر عهدي بمتاعب السيارة هو الوصول إلى الأرض التي لا يستطيع صديقي أن يقودها ولو لَذَّله ذلك!

نعم، وصلنا، ولكننا لم نكد نضع أقدامنا على الأرض (المنتظرة) حتى تصايح الرفاق :
«العيال». العيال، الحطب، الحطب. شبوا ناركم.
وتلفت عند ذلك فيما حوالي يمنة ويسرة لتقع عيني على الحطب الذي يذكرون. ولكنني لم أره وإنما رأيت بضع شجيرات صغيرة متناثرة هنا وهناك.

وأسرع أصدقائي كلهم إليها يقتلعون منها بكل خفة، فلم

يبق في الأرض جالسًا غيري، وعند ذلك عرفت أن لا معدى من مشاركتهم في جمع الحطب، وإلا فإن اسمي سوف يضرب عليه من قائمة (المرجلة).

والفضل الأكبر في ذلك يرجع إلى المتنبي الذي خطر ببالي قوله:

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال

فأسرعت أعدو تقفز رجلاي الشجر وترجع نفسي بي القهقرى إلى حيث الراحة وأنا بينهما أعذَّب كخروف الأعرابي الذي تزوج باثنتين.

ولكن:

مرة ثانية: «ليس بد مما ليس منه بد».

بدأت الحطب بأن انحنيت على شجيرة صغيرة حقيرة كنت أظنها لا تلبث بعد أن تمتد إليها يدي من أن تجيء معي طائعة أو كارهة.

ولكنني فوجئت بعد ذلك بخطئي في التقدير إذا أن هذه الشجيرة الحقيرة قد بادلتني حطبًا بحطب فانفصلت المعركة فيما بينها وبين يدي. وبعض الشجيرة في يدي وبعض جلد يدي في بقيتها والدم يدمع من ذلك الجرح.

وليت ذلك فحسب، بل إن جذور هذا القسم الذي انقلع منها قد حملت معها كُتَلاً من التراب زَجَّتْ بعضها في عيني.

آه، لقد رجعت بخفي حنين، وقد أصبحت بسبب ذلك معيبًا لا أصلح للخدمة (الحطبية).

رجعت إلى قاعة الاستقبال الواسعة التي لا أول لها ولا آخر وأنا أردد قول الشاعر :

لا تحسب (الحَطْبَ) تمرًا أنت آكله لن تبلغ (الخطْبَ) حتى تلعق الصَّبِرا

ثم أقول: يرحمه الله، لقد اخطأ في التقدير. لأنني لعقت الصَّبِر، بدون أن أنال الحطب.

وجلست عند الأثافي أصف حطب الرفاق دون أن أخرج عن منطقة السلامة بجانب السيارة رغم أنف (المرجلة) وسواء أشاءَ الرفاق أم أبوا.

ويظهر أن صديقي صاحب السيارة قد أصابه ما أصابني، إذْ سرعان ما هرع إليَّ، وهو يتمتم بعجزه عن الحطب يعتذر بذلك ظانًا أن الحطب الذي كنت أصفه وأرتبه هو من صنع يدي، ولم يخطر بباله قط أنه حطبي (بالتحطب) على غرار ابني بالتبنيِّ!!!

وجلست حول النار المتأججة، وكان الرفاق يتطارحون أفانين الحديث. أما أنا فإنني في وادٍ غير واديهم.

إن كل نظراتي قد تركزت في تلك (الدلة) ذات العنق الطويل، وذلك الإبريق الأسود الكروي الشكل تقريباً أرنو إليهما بعينين متعبتين، قد هربتا على أثر ضربهما بقنابل التراب المتحجر إلى أبعد ما استطاعا الهرب إليه في رأسي.

ثم أنتبه إلى بعض الرفاق يدعونني إلى المشاركة في الحديث، فأحاول ذلك بإلقاء الأسئلة فقط لأتركهم يتولون الإجابة عليها بينما أنصاع إلى تلك الجاذبية الغريبة التي تكمن بين هذه الأثافي الثلاث، وفي جوف هذين الشئيين الرابضين فوق الجحيم.

أحاول إتقاء الحديث معهم بإلقاء الأسئلة أية اسئلة، ولكنها كلها على الرغم مني لم تخرج عن نطاق الحطب والحاطبين مثل: كيف حطبت يافلان لأول مرة في عمرك؟.. وكيف تعلمت أن تقلع الشجر دون أن يقتلع منك جلدًا؟ ومن الذي علمك الحطب؟ ولكنني لا أفهم من كلامهم إلا بعض الكلمات الباهتة تترآءا لذهني وتمر مَرَّ (الحطب) كما تمر أمام الحالم أشباح الظلام.

ولكنني فهمت حينما جذب أحدهم ثوبي ليلفت نظري إلى تلك الكلمات، فهمت قوله :

قال أساتذة الحطب: إن للشجر أبوابًا كما أن للقصور أبوابًا، وإن مَنْ لا يحسن الوصول إلى هذه الأبواب لا يستطيع الدخول إلى باب النصر على الشجرة وإن مقتل الشجرة الوحيد هو في جهتها الشمالية الغربية. وإن ذلك هو نقطة الضعف فيها بسبب فعل الرياح الشمالية الغربية الكاسحة.

هذا وقد أظلم الجو، وتلبَّدت الغيوم السوداء الداكنة على مُحيًّا شمس الأصيل الذهبي فزادت الجوَّ وحشة على وحشة وإن كان لا يزال في عمر النهار ثمالة.

وكان صديقي (ع) صاحب السيارة يعرف من الرِّماية ما يعرف من قيادة السيارة. وقد مَرَّ في أثناء ذلك طائر يطير بجناحيه فرمقه ــ لسوء الحظ ــ صديقي فطار لبه مع الطير الطائر، وسَمَّر عينيه فيه.

وأسرع إلى أخذ البندقية، وهو رافع رأسه لا يعرف شيئًا عن العالم الأرضي الذي تحت رجليه، فضرب برجله إبريقنا الغالي ضربة جعلته يترنح على أم رأسه فاقدًا كل ما في جوفه وهو ــ أي صديقي ــ يقول :

ام م م م حَمد. ارررجوك: البندقية الرصاص. البندقية ما فيها رصاص، الحقني بها سريعًا، أخاف يضيع الطير ـــ ومَدَّ الياء لأنه كان قد قطع مسافة طويلة.

ولم يكن يسعني إلاَّ أن أُلَبِّي نداء الصداقة الواجب التلبية. ولحقته بطلقات البندقية التي كان قد وضعها في علبة منفردة.

ولم يكن بإمكاني أن ألبس نعلي لأنه حينذاك كان قد قطع مسافة أطول فرحت أعدو حافيًا، وأسراب الشوك تتعلق بقدمي، كما تتعلق قطع الحديد الصغيرة بقضيب المغناطيس.

وتبينت بعد ذلك صديقي وهو يشير إلَيِّ أن أسرع، لقد هبط الطائر إلى الأرض.

أسرع بالطلقات، أسرع بالطلقات.

فقلت له بصوت متحشرج ينطلق من حنجرتي بدون انتظام كأنه قد تأثر من جو الطلقات الذي خلقه الحديث عنها فهو يحاول أن يقلدها: ك ك ك.. ي ي ف . لي بالإسراع؟

رررر رجلي، الصخر يرجم رجلي من أسفل. العذاب ينبع من تحت رجلي.

الشوك الضاري ينهش رجلي نهشًا.

إلا أن صديقي قد (فنى) في طيره الواقع فلم يكن يسمع

آهاتي، وتأوهاتي! ووصلت بعد أن كدت أن لا أصل. وأخذ صديقي مني الطلقات، وصوب البندقية بيد مرتعشة إلى جهة الطائر.

ودوَّى في الفضاء الغائم صوت البندقية. فلم ينجح المسعى، إذ تبينت خلال الظلام المشوب بثمالة من ضياء أن الطائر الطريد كان... كان بومة!!!

«عندما يريد القلم أن يكتب»[1]

والقلم عندما يريد أن يكتب فإنه لا يعترف للعقبات بوجود ولا يفقه للإعتذار لغة لأنه يريد أن يكتب وكفى.

وتسأله لماذا أراد أن يكتب فلا يجيبك إلا بأنه يريد أن يكتب لأن وظيفته الكتابة.

وأنت بعد ذلك توافقه على أن يكتب أو لا توافقه.

ولكنه يكتب.

إنه لا يعترف للعقبات بوجود لأنه يذلل العقبات جميعًا ويدكها دكًا لأن لسانه الرقيق أمضى من الرمح وأحدّ من السيف كما قال القدماء.

لماذا صار أمضى من الرمح وأحد من السيف؟

لأنه يصدر عن النفس، عن الروح، عن الخاطر لأنه يترجم العواطف، ويحمل الرسائل من العقل إلى العقل والعقل الإنساني في هذا الوجود هو كل شيء فيه.

ولو عرف القدماء شيئًا أمضى من الرمح وأحد من السيف

---

(١) كتبت في يوم السبت ١٣٧١/٤/٢٨هـ ١٩٥٢/١/٢٦م.

لقالوا إن القلم أحد من الأول وأمضى من الثاني.

يرحم الله أبا تمام الطائي لقد أخطأ في الحكم حينما قال :

السَيف أصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

ذلك لأن القلم أو الكتب على حد تعبيره قد خلده في قصيدته تلك التي نظمها في وقعة طرسوس ولم تخلد ألوف المقاتلين في جيش المعتصم في تلك الواقعة سيوفهم ولو أنها كانت من أَحَدِّ السيوف ولا رماحهم ولو كانت من أمضى الرماح. ولا نريد أن ندخل في مناقشة بين القلم والسيف فلقد كفانا القدماء ذلك ولكننا نريد أن نقول: إن القلم عندما يريد أن يكتب فتستجيب له النفس ويرتاح له الفؤاد فذلك لأنه صوت العواطف الجائشة في نفس الكاتب وصدى الخواطر المضطربة التي تريد لها متنفسًا من خلال لسانه الرقيق.

إنما تستجيب النفس للقلم عندما يريد أن يكتب لأنه يفتح للعواطف المختزنة في النفس الطريق ويمهده لها إلى الخروج.

وإنما تستجيب النفس للقلم عندما يريد أن يكتب فإنما تستجيب لنفسها ــ إن صح هذا التعبير ــ إنما تستجيب لها هي لأن الخواطر في نفس الكاتب إذا لم تجد لها متنفسًا اختنقت كما يختنق الجسم إذا فقد الهواء إن القلم لنفس الكاتب كالرئة للجسم كلاهما يمون النفس بالهواء ويخرج

الهواء القديم ليدخل هواء جديدًا.

ولكن يفارق كل منهما الآخر في شيء، ذلك الشيء هو أن هواء نفسي القديم الذي أخرجته من خلال جهاز تنفسها وهو القلم قد يكون هواءً جديدًا بالنسبة لنفسك أنت ولنفوس قوم آخرين كما أن هواء غيري القديم قد يكون كذلك هواءً لنفسي جديدًا كما كان هواء غيري القديم هواءً جديدًا لنفوس قوم آخرين.

فالقلم إذًا يأخذ من أفكار البعض ليلقح أفكار آخرين ويأخذ من نفوس آخرين ليلقح نفوس آخرين.

وهو إذا ما أراد أن يكتب ولا يعترف بوجود العقبات فإنما يريد أن يقوم بمهمته تلك على الوجه المطلوب.

وهو إذا ما أراد أن يقوم بمهمته على الوجه المطلوب فإنه لا يعترف للعقبات بوجود ولا يفقه للاعتذار لغة.

إن الطيور تغني. والرعاة يحدون والشعراء ينظمون والفلاسفة يفكرون والكتاب يكتبون.

والقلم لا يصدر أوامره التي لا تقبل الجدل أو المناقشة إلا إذا استحكمت عادة الكتابة في نفس الكاتب وملكت مشاعره.

وقد يكون بعض الناس من غواة الكتابة فلا يجد من قلمه لكتابته مجيبًا ولا من نفسه لها مشجعًا لأنه يريد القلم أن يكتب لا أن القلم هو الذي يريد أن يكتب. فهو لذلك لا يفهم معنى لهذه الكلمات ولا يظنها إلا من عبث القلم ويكفي أن نرجوه أن يؤجل حكمه عليها حتى تستحكم عادة الكتابة في نفسه إذا كان قد خلق للكتابة أو حتى يدرك عجزه عن الكتابة ثم عجزه عن حكمه فيما يكتب عن الكتابة.

وكما ترسب الاكدار في قاع الكأس فكذلك ترسب الأفكار الكدرة في قاع النفس وسوف يقف القلم عن إرادة الكتابة إذا لم يبق في النفس إلا تلك الأفكار الكدرة الراسبة في القاع ولن يجري إلا عن غير طيب نفس منه.

سوف يجري عند ذلك وهو القلم المركب من حبر أو رصاص لا القلم المركب من أفكار وعواطف.

فحذار ثم حذار من قسر القلم على الكتابة إلا إذا كانت كالتمرينات الرياضية لهاوي الرياضة الجديد تتعب الجسم ولكنها تقويه بعد ذلك وتثير ضحك الآخرين وبكاء صاحبها في أول الأمر ولكنها تثير إعجابهم بعد ذلك وضحك صاحبها بشرط أن يكون جسمه خلق للرياضة.

«لا تنس نفسك»[1]

هناك جماعة من هواة الأدب أو من الأدباء (الخام) الذين يحاولون أن يكرروا أنفسهم حتى يصبحوا أدباء حقيقين وهم لو وجدوا الأدب يباع ويشترى أو لوجدوا أن الكتابة الأدبية وإن شئت قلت الفنية لو وجدوا ذلك يباع ويشترى لبذلوا كل مرتخص وغال في سبيل الحصول عليه.

فتراهم لذلك يشتركون في عشرات المجلات ويقرءون مئات المقالات حتى الجرائد القديمة فإنهم يقرؤنها يلتمسون فيها أن تعلمهم الأسلوب الكتابي وأن تأخذ بأيديهم إلى منصة الأدب. تجد أولئك قد أصابتهم حمى القراءة فأصيبوا منها بنهم شديد فهم يقرءون ويقرءون ويقرءون ولا يتركون مجلة إلا لقراءة مجلة أخرى ولا يدعون كتابًا إلا لقراءة كتاب آخر ولا تطمئن نفوسهم ولا يهدأ بالهم حتى يعلموا أن لهم رصيدًا في البيت صالحًا للقراءة.

فهم يقرءون بنهم وكثرة ويواصلون القراءة ولوسألتهم عن

---

(١) كتبت في يوم الأحد ١١ رجب ١٣٧١هـ ٦ إبريل ١٩٥٢م.

السبب الذي يحدوهم إلى كثرة القراءة وإلى الغلو فيها لأجابوك أنهم يودون أن يصبحوا أدباء كالأدباء الذين يقرءون لهم فهم لذلك ليسوا يقرؤن ليستفيدوا من قراءتهم أو ليجمعوا معلومات من قراءتهم أو ليثقفوا أنفسهم لا فذلك شيء ثانوي قد يأتي تبعًا أحيانًا وقد لا يأتي بنتيجة لقراءتهم أحيانًا أخرى.

فتراهم إذا ما قرأوا يتخيرون في المجلة أو في الكتاب أَخَفَّ ما فيه وقعًا على النفس وأكثره سطحية في التفكير وأقله إتعابًا للفكر تراهم يفضلون قراءة تلك البحوث أول ما يقرءون من المجلة أو الكتاب ثم يعودون مرة ثانية إلى المقالات أو البحوث المتينة.

وأحيانًا لا يقرؤن مثل تلك البحوث المتينة لأنها ثقيلة على النفس تحتاج إلى تؤدة وإمعان نظر، وإعمال فكر وهم ليسوا باؤلئك الذين تتوافر عندهم مثل تلك الصفات، أو توجد لديهم مثل تلك المزايا هم يحبون أن يقرؤا كثيرًا فحسب أو على الأصح يحبون أن يدعوا أنهم يقرؤن كثيرًا وإن كانوا لم يقرؤا على الحقيقة إلا قليلاً جدًا لأن القراءة ليست بكثرة المقرؤ أو بالاقتصار على مطالعة عنوان المقال وتوقيع الكاتب والقاء لمحة على ما بين ذلك وليست القراءة بقراءة مقدمة الكتاب أو بأرسال الطرف وحده يرتاد من تلك المقدمة ما يفهم منه

مقصد المؤلف من كتابه في تلك الساعة وقد لا يفهم ثم الهرب سريعًا إلى نهاية الكتاب كيف انتهى وبماذا ختم وهل وضعت له فهارس أم لا؟: ثم لا شيء غير ذلك.

إن أولئك القراء الهاربين من القراءة وهذا ما يستحقون أن ينعتوا به ليخيل إليهم أن مستقبلهم وهدفهم يقع في آخر كتاب يقرؤنه بمثل تلك الطريقة التي لا تجدي شيئًا أو في نهاية مجلة يلقون عليها نظرة يزعمون أنهم قراوها ولذلك فهم جادون مجتهدون في تلك التي يسمونها قراءة وهم يختبرون المقال يختبرون طوله من قصره فإن كان طويلاً تركوه وإن كان قصيرًا انتهبوه بأعينهم ولا يتعدى ذلك أعينهم ولذلك فإن الواحد منهم إذا ما تعذر عليه أن يجد شيئًا جديدًا يقرؤه بطريقته تلك رجع مرة ثانية إلى ما كان يزعم بأنه قد قرأه فألفاه كأنه لم يقرأ منه شيئًا كأنه شيء جديد وهو لا يعرف منه عدا عناوين الفصول أو المقالات شيئًا ذلك لأنه لم يقرأه القراءة الصحيحة.

وأولئك القراء الهاربون من القراءة يستبعدون في كل آن ولحظة تلك الساعة التي يصبحون فيها كتَّابًا كالكتَّاب الذين يقرؤن لهم وتراهم يكادون ييأسون من الأدب ومن الكتابة لأنهم حتى الآن لم يستطيعوا أن يكونوا أدباء كغيرهم من الأدباء أو كتَّابًا كغيرهم من الكُتَّاب.

ومما يزيد في محنة أولئك المساكين أنهم كثيرًا ما يقرؤن وكثيرًا ما يسمعون نصائح وإرشادات تأمر الشخص الذي يهوى الأدب أن يقرأ وأن يكثر القراءة فيزيدهم ذلك محنة على محنتهم ويضاعفون من قراءتهم تلك التي لا تجدي شيئًا إنهم يحسون أن القراءة هي تلك القراءة التي يمارسونها.

وإن جزءًا من مسؤلية محنة هؤلاء ليقع على أولئك الكتاب الذين يكتبون في الحض على القراءة وعلى الأكثار منها بدون شرح لتلك القراءة المرادة لهم بدون بيان للقراءة التي يقصدونها.

إن مثل أولئك القراء الهاربين من القراءة المتطلبين للكتابة في ميدان غير ميدان الكتابة إن مثلهم مثل الطفل الذي لا يقوم إلا إذا أخذ بيده غيره، فهو يخاف أن يقوم هو نفسه بالقيام وحده وأن يحاول أن يمشي بدون أن يعتمد على غيره.

إن مثلهم مثل الطفل الذي يخاف أن يسقط لأنه جرب مرة واحدة مثل ذلك فسقط فهو لذلك يتحين أن تنزل عليه المعجزة دفعة واحدة وأن تواتيه الكتابة والأدب وحيًا (أو كالوحي) في لحظة أو ساعة واحدة.

إن أولئك القراء الهاربين من القراءة قد نسوا أن الطفل الذي لم يعتد المشي لا بد له من التمرين على المشي ولا بد له في

أول الأمر أن يساعده غيره على القيام، ولكن لا بد له أيضًا من أن يجرب القيام بنفسه ولا بد له ــ أيضًا ــ من أن يسقط في أول التجربة وأن يدمي شيء من جسمه في بعض الأحيان ولا بد له أن يسقط ثم يسقط ولكن العاقبة له والنهاية هي فوزه بالقيام وحده بدون الاستعانة بغيره.

إن أولئك القراء هواة الأدب نسوا أنهم كذلك الطفل وأنه لابد لهم من أن يرجعوا المرة بعد المرة إلى أنفسهم ولابد أن يمتحنوا أنفسهم لينظروا أثر تلك القراءة فيهم وفي أنفسهم، لينظروا في ذلك، حتى إذا ما رأوا أن جدواها قليلة أو معدومة صححوا طريقة قراءتهم واستبدلوها بطريقة غيرها.

لابد لهم من أن يرجعوا إلى أنفسهم المرة بعد المرة وأن يتركوا القراءة وأن يجربوا أنفسهم بأنفسهم الأولى والثانية وحتى العاشرة والمائة فإنهم لابد منتصرون في النهاية إذا كان يوجد لديهم الاستعداد للكتابة، لأن يكونوا أدباء صالحين للأدب.
هناك طريقة لعلاج حال مثل أولئك القراء هواة الكتابة وهي طريقة ناجحة لأنها تغير في حالتهم من الناحيتين وتصحح لهم كلا الخطئين فهم توضح لهم أن مثل قراءتهم ليست بالقراءة المفيدة لهم أو ليست قراءة إطلاقًا وهي كذلك تأخذ بيدهم إلى ميدان الكتابة وتدربهم على انتهاج سبيلها.

تلك الطريقة هي أن يقفوا بين حين وحين كلما اتموا قراءة كتاب أو مطالعة مجلة أن يقفوا لكي يكتبوا ملخصاً لما قرأوه وليكتبوا بطريقتهم الخاصة ليكتبوه كما يستطيعون وكيف يستطيعون وليواظبوا على كتابة ذلك الملخص. وكذلك ليتدرجوا من ذلك إلى التعليق على ما يقرءون وليجدوا أن طريقتهم في الكتابة قد علمتهم القراءة الصحيحة.

ليعلقوا على ما يقرءون على طريقتهم الخاصة وليلتمسوا العون على ذلك من أنفسهم نعم من أنفسهم هم فكم من مواهب كانت كامنة في نفوس بعض الناس ولكنهم نسوها فأهملوها فعفا عليها الزمان وطمرتها قشور الأفكار الأجنبية عنها التي أسرع أصحاب تلك النفوس في تكويمها على أنفسهم.

نعم ليرجعوا إلى أنفسهم وليعلقوا على الحوادث بموجب ما توحي إليهم به أنفسهم ثم ليتدرجوا من ذلك إلى الكتابة والأدب وإنهم لا شك بعد ذلك واصلون إلى ما هم له صالحون.

«التطفـــل»[1]

التطفل قديم في العرب قيل إن أول من تطفل رجل يدعى بِطُفَيْل ويقال له طُفَيْل العرائس لأنه كان يأتي إلى الأعراس والولائم بدون أن يدعى لها ولا ندري أهذا هو الصحيح أي أن أول من عرفته العرب من المتطفلين هو طفيل العرائس وهذا ما لا نعتقده أم أن ذلك معروف لديها ولكن طفيل هذا هو الذي اشتهر به أكثر من غيره.

وعلى كل حال إذا كان التطفل قد يجر على المتطفل عليه بعض الأذى ويوقفه في مواقف حرجة فإن الأدب العربي قد استفاد من التطفل بما دونه من أخبار الطفيليين وأشعارهم ونوادرهم التي تدل على أن جماعة من المتطفلين كانوا من هواة الأدب بل كانوا أدباء وظرفاء يعوض ذلك صاحب البيت المتطفل عليه عما فقده من طعامه إن كان يحب الطعام وما يفقده من أنس إن كان من طلاب الانس والإنبساط.

وإن التطفل لا يوقع المتطفل عليه في مواقف حرجة وحده

---

(١) كتبت في يوم السبت ١٩ جمادى الآخرة ١٣٧١هـ ١٥ مارس ١٩٥٢م.

ولكنه قد يفعل مثل ذلك مع المتطفل نفسه وكلنا يذكر قصة المتطفل الذي سار مع جماعة من المحكوم عليهم بالقتل ولولا ظرفه وسرعة بديهته لكان من المتطفلين على القبر نتيجة لسوء استعماله لتطفله.

ولا نزال نذكر كذلك قصة ذلك الطفيلي الذي اندس بين جماعة من الشعراء بدون أن يعلم أنهم شعراء فأنشد كل منهم قصيدته التي بات الليالي والأيام الطوال يتعهدها بالتحسين ويرددها حتى تستطيع أن تحوز رضاء الخليفة الأدبي وتظفر باستحسانه.

ولما وصل دوره حار في أمره وخشي من عقاب الخليفة لولا أن اسعفته قريحته بجواب أضحك الخليفة وكان له بمثابة القصيدة إذ قال موجهًا كلامه للخليفة :

أنا يا أمير المؤمنين لست من الشعراء ولكنني من الغاوين الذين قال الله فيهم (والشعراء يتبعهم الغاوون) أنا متبع للشعراء ولست منهم!

وسواء أصح أكثر هذه الحكايات والطرائف المروية عن المتطفلين أم لم يصح فإنها أفادت الأدب العربي وصبت في نهره ولو ـــ على الأقل ـــ دلوًا.

هذا هو التطفل على موائد الطعام وهو كما نرى أكثره محمود العاقبة حسن الأثر. إلا أن هناك نوعاً من التطفل قد جر على الأدب العربي أعظم جريرة لأنه تطفل على الأدب وعلى موائد الأدب وعلى ثروات الأدباء وهو شر على الأدب العربي من كل ناحية بل أولى به أن لا يسمى تطفلاً وإنما يسمى اختلاسًا وسرقة وأن يسمى المتطفل على موائد الأدباء مزورًا ومختلسًا وسارقًا.

هذا النوع من التطفل طالما ضج منه الأدباء وشكا منه الشعراء مر الشكوى.

والمتطفل على موائد الأدب يخالف المتطفل على موائد الطعام من بعض النواحي منها أنه يتطفل تارة مع علم المتطفل عليه وتارة مع عدم علمه وهو في المرة الأخيرة يتصف بصفة السارق والمختلس.

أرأيت أديبًا يعصر فكره، ويكد أعصابه، ويتملق ذهنه وقتًا بعد وقت وحينًا بعد حين بل وربما فعل ما لا يمكن فعله أن يضر بميزانيته ربما قام برحلة إلى موضع يتوقع فيه الإلهام ويستمطر مدرار الشعر من أرضه وسمائه حتى إذا ما أثمر غرسه ونجح مسعاه ووضع قطعة من النثر أو قصيدة من الشعر سطا عليها أحد المتطفلين فأخذ من عباراتها ما كان رائعًا ومن تعبيراتها ما كان رائقًا.

ماذا يكون الأمر بالنسبة لصاحبنا الأديب؟

إنه خيبة الأمل، وإنه الغضب على الأدب، وأهل الأدب الذين سمح الدهر أن يكون ذلك المتطفل المختلس يعد نفسه من بينهم.

ثم ماذا جنى ذلك المختلس المتطفل على الأدب وأهل الأدب بعد ذلك!!!

أما ذلك المغير المنتهب الذي لا يسرق (بالقطاعي) ولكن بالجملة ذلك الذي يأتي لآثار غيره ثم لا يزيد ولا ينقص إلا ما لا يسمى زيادة ولا نقصانًا فذلك هو أهون المختلسين شرًا وهو الذي قد انتقم من نفسه بنفسه وما مثله إلا مثل من رأى الطير يخفق بجناحيه في الهواء فحاول أن يكون مثله بأن أخذ جناحي ذلك الطائر وألصقهما بنفسه ثم رمى نفسه من حالق.

ماذا تكون نتيجته؟ تكون هلاكه وبواره والانتقام للطير منه.

ولقد قص علينا الاستاذ أحمد حسن الزيات في كتابه (دفاع عن البلاغة) قصة رجل كان قد دعي إلى عرس، فقيد نفسه بين المتكلمين في الحفلة، ثم ذهب إلى كتاب من كتب الانشاء العتيقة المتداولة وانتقى منه الكلمة التي تناسبه انتقاها لا بأخذ العبارات المختلفة من الكتاب ثم صياغتها في الكلمة ولكن بأن احتجز كلمة من كتاب ليلقيها بدون زيادة أو

نقص لعله قد علم عليها فجعلها بين قوسين من المداد الأحمر لكيلا ينساها وجعل يردد تلك القطعة ويعيدها ويكررها حتى إذا ظن أنه قد استظهر منها كل شيء حتى علامات الاستفهام والتأثر حضر مزهوًا فخورًا يرددها في نفسه كلما علا المنصة خطيب أو تكلم متكلم ولكن لم يكد يقرب دوره في الكلام وحين ارتقى الخطيب الذي يليه منبر الخطابة حتى دارت به الأرض واسود في وجهه الضياء لقد كان الخطيب الذي قبله مباشرة يتلو تلك الكلمة التي اختارها بنفسها فماذا يفعل صاحبنا؟ لقد أخذ ببطنه كمن أصابه القولنج وراح يدب دبيب الهرم المنحني خارجًا من الحفلة.

وهنالك الشخص الآخر الذي يتطفل على الأدب ويختلس لا العبارات والتعبيرات كما يفعل الأول ولا القطعة بكاملها كما يفعل الثاني ولكنه يتطفل على الأدب فيختلس الفكرة ويضفي عليها ثوبًا من عنده وهو أهون شرًا من الأول وأعظم شرًا من الثاني.

إن هؤلاء المتطفلين على موائد الأدب وهؤلاء الأدعياء في أسرة الأدب لهم أعظم على الأدباء جناية من الذين لا يفهمون ولا يدعون لأنفسهم ـــ غير الحقيقة ـــ صفة الأدب.

إلا أنه يندر في الوجود الشر المتمحض والخير المحض

ولذلك فإن أولئك إذا كانوا قد جنوا على الأدب من جهة فهم قد أفادوه من جهة أخرى افادوه أي كانوا سببًا في إفادة الأدب.

إذ أن هؤلاء المتطفلين المختلسين هم في الواقع من أعظم الناس الذين يمونون سوق النقد الأدبي وعلى محاربتهم يقوم جزء كبير من النقد والنقد فن من فنون الأدب بل ألزم فنون الأدب للأدب.

ولذلك فإن فريقًا من الأدباء قد نصب نفسه حارسًا للآثار الأدبية يذب عنها بقلمه حشرات المتطفلين على موائد الأدب ويمزق عن اؤلئك المختلسين المتطفلين برود الزور التي ارتدوها ظنًا منهم أنهم بذلك يكونون من أهل الأدب على حين أن المتطفلين على موائد الطعام ليس في وجوههم غير الباب والبواب.

«المقـدر كائـــن»[1]

خرجت اليوم بعد صلاة الظهر من البيت إلى مقر عملي في المدرسة وكان بيتي في شمالي البلدة والمدرسة في جنوبها، ويقع الميدان الكبير في البلدة في منتصف الطريق بين البيت والمدرسة.

والميدان واسع جدًا وطويل جدًا وكله طريق يمشى معه.

وكنت أمشي وأحث الخُطا في مشيي اغتنامًا للوقت، وكان هناك في الميدان حمار مربوط لم أفطن له في أول الأمر وكنت مسرعًا جدًا والحمار مربوط لا يتحرك.

وبينما كنت غافلاً عن كل شيء لأن في دماغي فكرة يحاورها ويداورها وتحاوره وتداوره وقد نسيت كل شيء ولولا أنني قد اعتدت أن اسلك هذا الطريق يوميًا أزيد من مرة لما أستطعت أن اهتدي إلى المدرسة بدون أن أخفف من تفكيري وأوليه قليلاً من انتباهي.

---

(١) كتبت بتاريخ الثلاثاء ٢٢/٦/١٣٧١هـ ١٨/٣/١٩٥٢م.

كان دليلي في تلك الساعة رجلي لا عيني ورأسي والإنسان حينما يصبح دليله رجليه يصبح أشبه بالآلة منه بالإنسان. ولم أكد أوازي ذلك الحمار حتى تفضل غير مشكور ــ واستنثر نثرة ضخمة ــ أعاذك الله من أمثالها ــ أو على الأصح حتى صوب مدفعه الرشاش إليَّ فنجح مسعاه نجاحًا (قاهرًا) ولم يذهب من تلك النثرة الضخمة شيء سدى إلا مالم يجدْ منها محلا له في ثيابي.

ولم أملك عند ذلك إلا أن ضحكت، أي والله ضحكت في سري، ياللَه للعجب! هذا الحمار مربوط في ميدان كبير واسع لو اصطف فيه مائتا رجل لمشوا بسهولة ومع ذلك قُضي علي أن أمرق بجانب ذلك الحمار وكان بإمكاني أن أبتعد عنه مائة متر بدون أن أكون غيرت اتجاهي ولو كنت ابتعدت عنه أربعة أمتار مثلاً لكان من المستحيل أن يصلني من سهامه (المسمومة) شيء، هذه واحدة.

أما الثانية فإن ذلك الحمار ظل ساكنًا هادئًا لم تراوده نفسه على أن يستنثر قبل أن أحاذيه وأغلب الظن أنه لم يستنثر في ذلك اليوم بأكمله ومن يدري فقد يكون لم يستنثر حتي في ذلك الشهر بأكمله واختزن كل ذلك لتلك اللحظة التي حاذيته فيها بل ولعله لا يستنثر بعد ذلك مدة طويلة.

لقد جعلت أضحك (وشر البلية ما يضحك) وبرزت في ذاكرتي بعض القصص والحكايات التي تشبه مثل هذه الحادثة وقليل منها ما يشبهها في كل شيء.

تذكرت قصة طويلة سمعتها من والدي رحمه الله ملخصها :

أن رجلاً كان له صديق وكان صديقه فقيرًا أما هو فكان يحتفظ ببعض النقود القليلة والنقود عزيزة آنذاك في نجد وفكر ذلك الصديق الفقير في أن يسرق نقود الرجل لأنه هو وحده الذي يعرف أين يضع ذلك الرجل نقوده أما غيره فلا يعرف ذلك لأن الرجل كان حازمًا يقظًا إلا مع صديقه هذا ولم يقع في خاطره أن صديقه سوف تزين له نفسه أن يخون صداقته ويستلب ما جمعه في ماضي حياته وجميع ما حازه في زهرة عمره.

أما ذلك الصديق الفقير فقد سولت له نفسه أنه يستطيع أن يفعل كل شيء بدون أن تتأثر صداقتهما بشيء فهو لن ينتهب النقود انتهابًا ولكنه سوف يختلسها ومن أين يعلم صاحب النقود أن سارق النقود هو صديقه؟!

وجعل ينتظر الفرص وكانت قليلة وذات ليلة من الليالي المطيرة كان البرد شديدًا والمطر يهطل والوحل كثير وكانت ليلة مطيرة بعد يوم مطير كان الصديق الفقير يعلم أن ذلك

الرجل يضع نقوده القليلة في حفرة صغيرة تحت فراشه الذي ينام عليه هو وزوجه فقد أخبره هو نفسه بذلك فماذا يصنع إذًا لكي يستطيع أن يبعد الرجل وامرأته من الفراش ولكن أنى له ذلك إنهما لا يقومان وهما يعلمان أن عماد حياتهما تحته.

وفكر طويلاً والح عليه البرد وغسله المطر ومل الجلوس بعد أن طال جلوسه مترقبًا حذرًا وصاحب النقود وزوجه ينعمان بنوم لذيذ والبيت ليس فيه غيرهما إلا ابنهما الوحيد الرضيع وقد اضجعاه بينهما. ولمعت في رأسه فكرة سرعان ما نفذها.

لقد ذهب بخفة وحذر يحبو على يديه تارة ويركع أخرى وبين الحين والآخر يلصق بالأرض ليتيقن هل أنفاسهما وانفاس طفلهما عادية كما تكون أنفاس النائم أم أنها أنفاس المتناوم.

وفي غمرة الخوف خفق قلبه بالأمل لقد كانوا نيامًا حقًا الجميع نيام الزوجان والطفل.

والتقط الطفل من فراشه في سكون وبدون أن يشعر الطفل بذلك أو يشعر الأبوان وخرج به إلى فناء الدار المكشوف.

ورجع مرة ثانية بأسرع ما يكون إلى باب الغرفة وجلس على أصابع رجليه في الظلام منتظرًا ما يحدث لقد رتب في فكره كل شيء لقد فرض أن الطفل بعد أن يذهب عنه ويحركه بيده

سوف يصيح وسوف يحمله المطر على زيادة الصياح وعلى الصراخ وسوف ينتبه الأبوان بصياح طفلهما وسوف يفزعان لذلك وسوف ينسيهما الفزع والدهشة كل شيء حتى نقودهما المدفونة تحت الفراش وعند ذلك وحالما يخرجان من الغرفة يدخل هو ويلتقط النقود ويطلق ساقيه للريح في عباب الظلام والمطر.

وتحقق ما قد جعل الطفل يصرخ صراخًا عاليًا وانتبهت الأم وأخذها العجب وجعلت تتساءل: من يكون ذلك الطفل الذي وضع في فناء بيتهما هل هي في حلم أم في يقظة؟ وندت عنها صرخة قفز لها زوجها من فراشه مذعورًا لقد أرادت أن ترضع ابنها ولكنها لم تجده في فراشه وصاحت بزوجها:

إنه هو، إنه ابني يصيح في الخارج، لا أستطيع الخروج وحدي أسرع. وخرجا معًا إلى مصدر صوت الطفل في الظلام وغادرت خطاهما الغرفة ليمرق ذلك اللص داخلاً فيها قاصداً فورًا مكان النقود.

وأسرع فانتشل النقود، ولكن... ولكن، ... لم تكد تستقر في يده حتى حدث ما لم يكن له في حسبان.

لقد رتب كل شيء ولقد أخذ لكل شيء عدته إلا لذلك الشيء ترى ما هو ذلك الشيء؟

هو أن الغرفة أطبقت عليه.

لقد انهار سقفها عليه لقد انهار سقفها لأنها وهي مبنية باللبن ومسقفة بأعواد الأثل قد استطاع الماء بعد هطول المطر وقتًا طويلاً أن ينفذ إلى باطن الجدار إلى اللبن فاختمر الطين وانهارت.

سمع الزوجان بعد أن ضما طفلهما إلى صدر كل منهما مرات بالتناوب سمعا صوت الغرفة وهي تنهار ولم يزعجهما ذلك كثيرًا لأنها قد ابتلت بالماء فلم يسمع لها صوت شديد ولأنهما قد نسيا في غمرة الفرح والدهشة كل شيء مما خفف وقع الكارثة عليهما.

ولكنهما جعلا يضحكان ويتعجبان ويحمدان الله تعالى الذي بعث ملكًا من الملائكة لإنقاذهما وانقاذ طفلهما من الموت.

ماذا يحدث لو أنها انهارت عليهما؟

إن الطفل الرضيع سوف يموت لو وضع على وجهه قطعة من قماش سميك فما بالك بالمنزل ينهار عليه؟

ظلا يتعاطيان كأس السرور ويتناوبان الحمد والشكر لله على سلامتهما وسلامة طفلهما.

ولكن لنرجع إلى صاحبهما اللص هل مات؟
إن ذلك لأهون من أن يلقى صديقه، ويعرف أنه هو الذي عرض ولده للخطر وأراد سرقة نقوده عماد حياته.

لا، إنه لم يمت، وإن الله للظالمين بمرصاد.
إن الغرفة لم تقض عليه ولكنه الآن بين الموت والحياة.
ودهش الزوجان مرة ثانية حينما سمعا أنينًا منبعثًا من الغرفة وانزعجا هل لا يزال في المهزلة بقية؟ ولكنهما تيقنا هذه المرة أن الجن هم الذين كادوهما وعملوا على إزعاجهما فالتقطوا الطفل وهدموا الغرفة ثم استتروا فيها يئنون ويزعجون.

ولكن الأنين لم ينقطع وعادة الجن إذا ما فعلوا شيئًا لا يفعلونه بحيث يكون متصلاً لا يفرق بينه وبين الحقيقة شيء. فتشجع الرجل وقصد مصدر الأنين بين الطين والأعواد وسأله من أنت وبعد لأي استطاع أن يعرفه ولكنه لم يستطع أن يزيح عنه الانقاض لأن المطر جعل يشتد ولأن جهده يقصر عن ذلك ولكنه وعده بذلك في الصباح.

هذه قصة واحدة تُرىٰ هل يتصور إنسان أن مثل هذه القصة سوف تقع؟

أغلب الظن أنه لا يصل إلى تصورها الذهن ولا يجري مثلها

ولا في الخيال ولكنها قصة حقيقية واقعية وقصة من عشرات القصص التي أعرف في موضوعها.

وأغلب الظن أيضًا أنه لو كان سقف تلك الغرفة بيد رجل لما استطاع أن يطلقه في الفرصة المناسبة عندما وقعت صرة النقود في بدا للص.

ولو كان ذلك الحمار رجلاً بيده «خرطوش» من الماء مثلاً لما استطاع أن يصيبني كما أصابني بنثرته ذلك الحمار.

حقًا إن المقدر كائن وإن رب صدفة خير من ميعاد.
ومالنا نذهب بعيدًا وهذا سيد المرسلين ﷺ يمر من تحت حائط مائل للسقوط فيسرع فيه خطوه حتى يتجاوزه ثم يرجع إلى مشيه المعتاد. هذا فعله ﷺ ولو فعله اليوم أحد ممن ينتسب إلى العلم لقامت قيامة الناس ــ وخصوصًا ــ العوام حوله لأنهم قد يعدون مثل ذلك من الجزع وعدم الإيمان بالقدر الإيمان الصحيح.

ألا ترى أن النبي ﷺ قد علم أمته كل شيء حتى هذه الأشياء؟ إن القدر هو كما يقول بعض فلاسفة الإسلام يرد بالقدر مثله وإنه إذا كان المرض مثلاً قدراً من الله فإن التداوي كذلك من القدر وفعل الأسباب من القدر.

فالعاقل من يدفع القدر بالقدر لا من يترك الأسباب بحجة القدر.

لو وقع مثل ذلك من غير النبي ﷺ أي مثل اسراعه حينما حاذى الجدار المائل لاستسفه فاعله ولقيل له مثلاً هل من المعقول أن ذلك الجدار يلبث تلك المدة الطويلة منذ بني أو منذ مال بدون أن يقع وينتظر فرصة مرورك حتى تمر تحته فيقع.

ولكن نعم قد يكون الأمر كذلك كما كان في الغرفة والحمار.

وإن النبي ﷺ الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه إنما يفعل ذلك ليسن لأمته الحذر والأخذ بالحزم في جميع الأمور. ﷺ.

«الراحـة والعمـل»[1]

يفرط كثير من الناس في مدح الراحة، وذم العمل المتواصل ويقولون إن الجسم بل إن الإنسان بكل ما فيه فكره وجسمه كالآلة تحتاج إلى من يزيتها، وتحتاج مع ذلك إلى من يقتصد في تشغيلها ويعتني بها ويقولون تبعًا لذلك: إن الراحة هي السبب الأول للسعادة سعادة الجسم والفكر وهي لذلك مجلبة الرضا والسرور.

وإنها ضرورية لازمة لمن يريد أن يستديم نشاطه ويستمتع بعمله ــ وكلنا نريد ذلك ــ ثم يقولون: إن الراحة هي الحياة أو هي التي تجعل الحياة مستساغة ومقبولة وما الحياة إلا ما يتمتع به المرء منها في رضا وسرور.

فتراهم يقولون للشخص الذي يذكر أن عمله يقع ثقيلاً على نفسه صعبًا أداؤه عليه يقولون له: عليك بالراحة.

وتراهم ينصحون الشخص الذي يكثر من العمل الجسماني

---

(١) كتبت في يوم الاربعاء ٧/٧/١٣٧١هـ ٢/٤/١٩٥٢م.

والعقلي بأن يلتزم الراحة إذا ما أراد لعمله أن يكون أحسن كمًا وكيفًا.

المهندس والموظف والكاتب والصانع والمفكر كلهم في نظرهم ضروري لهم لكي يحوزوا شروط الرضا أن يركنوا إلى الراحة.

وبوجه الاجمال يقولون: إن كل إنسان محتاج بل مضطر إلى الراحة وهم يعنون بالراحة هنا الكسل والخمول وترك الأعمال.

والواقع أنهم يقعون في خطأ كبير وغلط فاحش إنهم يجنون جنايات متعددة على من يعتقد قولهم ويطبق نظرتهم ذلك بأن الراحة ليست كما زعموا. إن الراحة المفيدة ليست هي مجرد القعود والكسل ولكنها غير ذلك إنها هي الراحة كما تفهم من معنى كلمة الراحة اللغوي الراحة هي ما ارتاحت إليه النفس واقبلت عليه بداعٍ منها. وهي لذلك نسبية وتختلف باختلاف الأحوال والأشخاص. فراحة بعض الناس هي في العمل كما أن راحة بعضهم في القعود والكسل كما تفهم غالبية الناس من لفظ الراحة.

إن الأفراد يختلفون بعضهم عن بعض في الطاقة الجسمية

والفكرية وإن بعض الأفراد راحتهم ليست في القعود والكسل ولكن في الجد والعمل أليس إذاً معنى الراحة هو معناها اللغوي؟

نعم: إن معناها اللغوي هو الراحة الحقيقية الراحة هي ما يرتاح إليه الإنسان فإذا كان الإنسان يرتاح إلى ترك العمل والإخلاد إلى القعود فعليه إن يخلد إلى الراحة بين حين وآخر. وإذا كان الإنسان يرتاح إلى العمل ويتشوق إليه ولكنني اشترط مع ذلك أن يرتاح للعمل ويتشوق إليه لا لسبب خارج عن العمل ولكن للعمل نفسه أو بعبارة أصرح لأنه ـــ أي الشخص ـــ هو نفسه يحب العمل وخلق محباً للعمل كارهًا الكسل والخمول أو هو ليس كارهًا للقعود والكسل ولكن القعود والكسل يسبب له متاعب جديدة كأن يسبب له التفكير الشديد في مشكلاته ومنازعاته فيحمله ذلك على الانقباض وعدم الراحة.

ولذلك فأنا أقول: إن الراحة في ما يرتاح إليه الإنسان سواء أكان ذلك الشيء في نفس ما يرتاح إليه أم لشيء خارج عنه على أننا إذا ما تركنا الاعتبارات جانبًا ورجعنا إلى موضوع الراحة والعمل من حيث هي راحة وعمل ومن حيث تعلق حالة الإنسان بهما وعدمها. وجدنا مرة ثانية أن زعم أن الراحة التي

تفسيرها القعود والكسل هي سبب الإرتياح، والتي ينبغي للشخص كي يكون مرتاحًا في حياته راضيًا عن عمله متجدد النشاط أن يمارسها نجد أن ذلك الزعم غير صحيح على وجه العموم وإن كان صحيحًا في بعض أفراده.

وإنما هنالك قاعدة صحيحة جامعة مانعة ــ كما يقول الأصوليون ــ هي أن الراحة في التغيير، فإذا مل الإنسان العمل وثقل عليه أداؤه فما عليه إلا أن يغير عمله أي تغيير أو على الأصح أن يغير منهجه فبعض الناس يغير بالراحة، وبعضهم بعمل آخر مباين للأول، وآخر يستبدل العمل الجسماني بالعمل الفكري وغيره بالعكس.

كما أن فهم بعض الناس أن معنى الإجازة هو الكسل والقعود، فهم غير صحيح بل الإجازة النافعة هي تغير العمل، الإجازة من كل شيء هي تركه إلى شيء غيره قد يكون ذلك الشيء هو القعود والكسل وقد يكون هو السعي والعمل. من ذلك يتبين لنا أن الراحة ليست الكسل والقعود ولكن ما يرتاح إليه الإنسان.

«شبيه الشيء منجذب إليه»[1]

بعد أن انقضى الدرس الأول بالمدرسة اليوم وبعد أن خرج التلاميذ من فصولهم الدراسية للفسحة سمعوا صوت عصفور صغير لا يقدر على الطيران فذهلوا عن أنفسهم وتركوا الفسحة في التطلع إليه والطرب لسماع صوته حتى دخل الدرس الثاني هكذا حدثني المدرس الذي كان يراقبهم في وقت الفسحة وحدثني عن قصة ذلك الطير الصغير أن أحد المدرسين رآه مع أحد التلاميذ قبل الدخول في الدرس فظن أنه يطير فقذف به إلى السماء فكان أن وقع في السطح فقلت له لابد من شيئن الآن بصدد هذا العصفور الصغير هما إما إبعاده وإما مراقبة الطلبة في الفسحة مراقبة دقيقة عن الاشتغال بالتطلع إليه وترك الفسحة تفوت عليهم وهم محتاجون إليها لمثل الوضوء وغيره.

وجعلت وأنا في غرفة المدرسين أفكر في هذا وتذكرت أن الأطفال يميلون إلى كل شيء صغير. إلى صغار الحيوانات والطيور وحتى صغار بني آدم تذكرت أننا عندما كنا أطفالاً لا نطرب لشيء ولا نعجب به مثلما نعجب ونطرب عندما نرى

---

(١) كتبت يوم الثلاثاء ١٢ شعبان ١٣٧١هـ الموافق ٦ مايو ١٩٥٢م.

قعودًا صغيرًا أو جحشًا صغيرًا أما صغار الأرانب والظباء ففيها السحر كل السحر تذكرت ذلك ورحت أسأل نفسي عن السر في ذلك ولكنني لم أظفر بإجابة شافية وإنما ظفرت بمجموعة من الأجوبة وليس من بينها جواب مقنع تمام الاقناع.

قالت لي نفسي: قد يكون ذلك لما بين الأطفال وبين الصغار والطيور من مشابهة في السن ومشاكلة في العمر وإن لم يكن ذلك الشبه وتلك المشاكلة في عدد الليالي والأيام وإنما في نسبة العمر وعدد مراحله فالطفل الذي عمره سبع سنوات يقال إن عمره كعمر العصفور الذي له عشرون يومًا مثلاً ذلك لأن كلاً منهما قد شب عن طور الولادة والطفولة إلى دور الصبا ولما يتجاوزه ثم قالت والدليل على ذلك ما نراه في عالم الآدميين فالشيخ الكبير يميل إلى الشيخ الكبير بل لا ينسجم تمام الأنسجام إلا معه ولا يأنس إلا به كما أن الصبى كذلك يأنس إلى الصبى والحدث إلى الحدث والشاب إلى الشاب والكهل إلى الكهل.

وقد يرد هنا سؤال هو أنه إذا كانت العلة كذلك فلماذا لم نجد الطفل يفرح بالطفل ويعجب به كما يفرح بالعصفور الصغير أو الهرة الصغيرة ويعجب به أو يعجب له؟

والجواب على ذلك أن للعادة وكثرة المخالطة أثرًا في ذلك

فالطفل يميل إلى الطفل ويعجب به ويأنس إليه ولكن لا كأعجابه بالعصفور الصغير وفرحه به.

لأن الطفل كثير الاختلاط وكثير المشاهدة له وكثرة الاختلاط بالشيء والمشاهدة له تفقده كثيرًا من أهميته وتقلله بعض الشيء في نفوس مشاهديه ومن ألفوه.

وأمثلة ذلك كثيرة ومن بينها أن من تربى في منطقة جميلة لا يتأثر بجمالها وهو لم يخرج من تلك المنطقة كما يتأثر به من وفد إلى تلك المنطقة من منطقة عكسها غير جميلة.

وهناك جواب آخر هو أن النفوس كل النفوس صغيرها وكبيرها تقدس الطهر وتميل إلى البراءة وفي الطيور الصغيرة والحيوانات الصغيرة يتمثل الطهر وتتجسم البراءة والأطفال الصغار لهم نصيبهم من حبهم للطهر والبراءة كالكبار ولهم كل ذلك من كونهم أبرياء أكثر طهارة من الكبار ونصيب آخر من حبهم لذلك فهم يعطفون على صغار الطيور والحيوانات أكثر مما يعطف غيرهم عليها.

فقلت لنفسي: هذه أجوبة ولكنها حتى الآن لم تشف غليلي من معرفة السبب الصحيح الواضح لميل الصغار من الآدميين (الأطفال) إلى الصغار من الحيوان والطيور ذلك الميل الذي يصل بهم إلى حد أنهم يعشقون حتى التماثيل الصغيرة

لأنها تمثل الصغار تماثيل الأطفال والحيوانات والطيور الصغيرة.

وإنني لأذكر بهذه المناسبة قصة حدثني بها والدي رحمه الله قال إنه في أحد الأيام دخل طفل صغير يحبو على ركبتيه لم يستقم عوده بعد دخل من ممر إحدى الميازيب في سطح عالٍ إلى أن أصبح على ذؤابة الميزاب والميزاب دقيق بحيث أن أقل حركة من ذلك الطفل كفيلة بأن يقع إلى الأرض ووقوعه إلى الأرض كفيل بتحطيمه إذ أن ذلك الميزاب يقع في أعلى سطح من سطوح الدار التي تبلغ أدوارها ثلاثة.

ومما أقلق بال أهله وجعل أمه وجميع الأسرة يبكون ويصيحون أن كل محاولة منهم إلى إرجاعه أو مناداته من داخل السطح تجعله يبتعد عن موقعه لأنه كان يتقهقر كلما حاولوا ذلك نافراً عنهم حتى إذا لم يبق من الميزاب شيء حاروا في أمره وخافوا إن فعلوا شيئًا أن يتقهقر ثم يسقط على الأرض!

ولبثوا حائرين مشفقين حتى تقدم أحد الجيران وقال: تنحوا عنه ولا تقربوه فأنا كفيل بإرجاعه من حيث جاء سالماً.

ثم طلب أن يحضر طفل صغير غريب عن ذلك الطفل. وإن يعطى لعبة غريبة وأن يوضع في السطح قريبًا من الميزاب الذي عليه الطفل ففعلوا فلم يكن من الطفل إلا أن رجع أدراجه لكي يحدق في ذلك الطفل الغريب ويختطف منه لعبته.

«أســماء الــريح»[1]

قرأت اليوم في كتاب «نهاية الأرب، في فنون الأدب» للنويري فصلاً نقل فيه من كتب اللغة فيما نقل أسماء الريح. وكانت اسماء كثيرة متنوعة ولكنها لم تخرج عن كونها الريح الواحدة التي يعرفها بذلك البسطاء من الناس لم تخرج عن ذلك بتلك الأسماء الكثيرة.

وعجبت لنا ــ معشر العرب ــ وللعرب الأولين بصفة خاصة كيف يضعون للريح هذه الأسماء الكثيرة، ويكتفون بذلك ثم يتناقلونه، ويورثونه الأجيال اللاحقة دون أن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه على حين أن غيرهم من الأمم وخصوصًا في العصر الحديث ذهبوا إلى تحليل الرياح، ومعرفة خصائصها، وما يمكن أن يستفاد منها.

وقلت: يالله للعجب، ماذا لوخسرنا من اسماء الريح الكثيرة نصفها على أن نعرف مقابل ذلك طبيعة الريح وكيف نستفيد منها ما لم نكن نستفيده، إن الغربيين لم يكونوا يملكون في

---

(١) يوم الأربعاء ١٣٧١/٧/٢٨هـ ٢٣ إبريل ١٩٥٢م.

قواميس لغاتهم القديمة لأسماء الظواهر الطبيعية ما يملك الشرقيون، ولكنهم يملكون من المعلومات والقوانين للاستفادة منها في الزمن الأخير ما لا يملكه الشرقيون.

لذلك فإن من الخطأ تحبيب الإشتغال بسرد الأسماء وإن شئت قلت: المظاهر المتعددة التي تعدد الطرق إلى الوصول إلى النتيجة بدون أن تعين على فهم تلك النتيجة.

من الخطأ تحبيبها إلى النشء، بل يجب أن تبقى حبيسة المراجع للاستفادة منها عند الحاجة إليها لتحقيق نص قديم مثلاً أو ما يماثل ذلك ويجب أن نحبب إلى الناشئة من أولادنا الكتب التي تبحث في الحقائق أكثر من الاعتماد على الأسماء المجردة المتعددة.

ويجب على الأدباء والكتاب ألا يستعملوا في كتابتهم الألفاظ غير الشائعة إذا كانت توجد ألفاظ معروفة مستعملة تؤدي نفس ما تؤديه تلك الألفاظ.

«الفردوس المفقــود»[1]

إنني حينما أطالع في الكتب الأدبية الأندلسية أو في الكتب التي تبحث في فنون الأدب الأندلسي وتورد نصوصًا وفيرة منه أشعر شعورًا لا أدري بما أصفه.

إن الشعر الأندلسي بل الأدب الأندلسي على العموم يحدث في نفسي تأثيرًا لا يحدثه أي أدب عربي قديم آخر. وإنني حين أقرأه أحس إحساسًا جارفًا يدفعني إلى زيارة الأندلس وإلى رؤية آثار أولئك الرعيل الرقيق من الأدباء العرب المسلمين.

إنني أشعر بشعور من يقرأ لأناس بشاركهم في الاحساسات رغم بعد الدار والزمان فدفعتني نفسي إلى البحث عن وسيلة أتمكن بها من الاجتماع باؤلئك الأدباء ولات حين اجتماع.

أحس بذلك ولكن شعور الأسف والأسى على ذلك الفردوس المفقود الذي أنجب اؤلئك الأدباء الرقيقي الشعور المرهفي الاحساس يختلط بشعور اللذة بالاطلاع على آثارهم

---

(١) كتبت يوم الأربعاء ١٣/٣/١٣٧٠هـ ٢٣/١٢/١٩٥٠م.

وترديد نثرهم وأشعارهم كما قلت يختلط بذلك شعور بشيء من الارتياح لتدوين ذلك الأدب العربي الراقي وحفظه من الضياع.

ولكن ماذا تجدي الآثار في الديار غير الادِّكار وإنه لادِّكار يبعث الحزن في الفؤاد ويزرع الأسى في النفس.

اقرأ لابن زيدون ذي الوزارتين شعره فأجد الفن الصحيح الذي ينطق به ويتمنطق كل بيت من أبيات قصائد ديوانه حتى إنني من فرط تأثري بقراءته أرمي بديوانه وأنا أشد ما أكون شوقًا إليه لأنه يبعث في نفسي من الأسى والأسف ما يصعب تحمله دفعة واحدة.

وليس ابن زيدون إلا واحدًا من مئات الشعراء والفنانين والعاطفيين الذين يجمعون في أشعارهم بين العاطفة الفياضة والوصف الصحيح وهما ركنا الشعر الفني الراقي.

وإذا ما ضربنا صفحًا عن شعراء الأندلس وأدبائها ونظرنا إلى شواعر الأندلس وأديباتها رأينا العجب العجاب: رأينا الشاعرات اللواتي لم ينجب قطر من أقطار العربية مثل ما أنجب منهن في فترة زمنية تعادل فترة الأزدهار الأدبي في الأندلس. ويكفي أن نذكر منهن ولاَّدة بنت المستكفي التي اشتهرت بحب ابن زيدون لها وكان قد عرفها كثير من أهل

الأدب والفن غيره بل ومن أهل الجاه والسلطان وهي التي نظم فيها ابن زيدون قصيدته المشهورة التي مطلعها :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تنائينا

ومنها :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقًا إليكم ولاجَفَّتْ مآقينا

وهي القصيدة التي حكم بعض الأدباء الأقدمين بأن كل من قرأها لابد أن يبكي لأنه لابد أن يتذكر حبيبًا أو صديقًا قد فارقه.

ومنهن حفصة المرية الشاعرة والأدبية المشهورة.

وإن خير ما ألف في العربية عن الأندلس وأخبار الأندلس هو كتاب.. نفح الطيب للمقري ولولا حشوه بما شاع في ذلك الزمان وعد فيه من شروط النثر الفني وهو التزام السجع ولو أدى إلى زيادة كلمات لا حاجة إلى زيادتها، ونقص كلمات لا تتم الجملة إلا بها أو استعمال كلمات حوشية غريبة لولا ذلك لكان نفح الطيب الكتاب الأندلسي الأول الممثل لأخبار الأندلس والأندلسيين.

ولعل كتاب أمير البيان شكيب ارسلان الذي سماه «الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية» هو الموسوعة الحديثة التي حوت من أخبار الأندلس والأندلسيين ما لم يحوه كتاب

قبلها زد على ذلك أن الأمير رحمة الله عليه كان يضيف إلى المصادر العربية وفي مقدمتها «نفح الطيب» جميع ما اطلع عليه في مصادر تاريخ الأندلس باللغات الإفرنجية ما كان مؤلفًا فيها وما كان مترجمًا إليها.

ومن هذا الأخير بعض الكتب العربية التي كانت قد ترجمت إلى لغة افرنجية وضاع أصلها العربي ولم يبق إلا تلك الترجمة الإفرنجية. وقد ذكر في مقدمته أنه صنفه في عشر مجلدات ولكنه لم يصدر منه ــ فيما علمت ــ سوى ثلاث وقد عاجلت المنية المصنف قبل اتمام طبعه.

إقرأ تلك المجلدات الثلاث التي طبعت من كتاب الأمير شكيب ارسلان تقتنع بأن عرب الاندلس كانوا أرق الشعوب العربية ذوقًا وأصدقهم عاطفة وأشدهم رهافة في الشعور.

اقرأ ما نقله عن «نفح الطيب» ومصادر أخرى بأن أهل الأندلس كانوا ممتازين في النظافة عن غيرهم من الشعوب المعاصرة بحيث أن أحدهم كان إذا لم يجد غير درهم واحد لطعامه وشرابه وصابون ثيابه اشترى بذلك الدرهم صابونًا لثيابه قبل أن يشتري به طعامًا أو شرابًا لشدة كلفهم بالنظافة وغرامهم بها.

ثم اقرأ لابن جبير وكيف أنه حين وصل إلى القاهرة وهي بلاشك كانت في مقدمة البلاد العربية في ذلك الزمان من

حيث المدنية والثقافة جزع أشد الجزع وتألم أشد التألم حينما شاهد الأتربة فيها تتصاعد من الطريق، وتتناثر لتملأ أنوف المارة وأفواههم، وكيف أن أمتعة الحمار الذي ركبه كانت قذرة إلى حد كادت نفسه لا تتحمله.

اقرأ ذلك لتعرف عراقة أهل الأندلس في حبهم للنظافة والتمدن، ثم ارجع إلى بعض المصادر التي نقلت صورًا شمسية لبعض القصور والمباني العربية الباقية في الاندلس، ومنها قصر الحمراء في غرناطة ومدينة الزهراء وفي مقدمة تلك المصادر «تاريخ حضارة العرب» الذي وضعه بالفرنسية الفيلسوف الفرنسي الكبير جوستاف لوبون وترجمه إلى العربية الاستاذ عادل زعيتر ورحلة الأندلس. للأديب البتنوني وغيرهما تجد في تلك المباني والقصور الذوق الرفيع والفن البديع الذي لم يصل إليه غيرهم في تلك العصور القديمة.

اقرأ ذلك لتقتنع بأن لي واسع العذر إذا كانت قراءتي للأدب الأندلسي وللأدباء الأندلسيين مما يثير في نفسي احساسًا مزيجًا من الأسى والأسف والغبطة والسرور حتى يصل بي الأمر أحيانًا إلى أن أطرح الكتاب الذي أطالعه وأنا أشد ما أكون شوقًا إلى مطالعته ثم صِفْني بعد ذلك بأنني عاطفي أكثر من اللازم، أو لا تفعل، فليس الأمر في الواقع غير ما ذكرت، وليس ذلك بكثير على تذكر (الفردوس المفقود).

«نزهة في عاصفة»[1]

سَوَّلَ لي صاحبي أن أذهب معه في نزهة أو ما يشبه النزهة إلى مكان قريب من البلد بالنسبة إليه، لأنه قد اعتاد المشي الكثير، وهو قد اعتاد الذهاب إلى ذلك المكان والمجيء منه أكثر من ذلك.

وهو بعيد من البلد بالنسبة لي لأنني لست كثير المشي الذي يشبه ذلك المشي ولكنه سَوَّلَ لي ذلك، وسَوَّلَتْ لي نفسي أن أطيعه.

وذهبت أبني الآمال الضخام على تلك النزهة مثل أن أرجع مسرورًا نشيطًا وأن أرى ما لـم أره، وأسمع ما لم أسمعه سوف أرى الالآت الرافعة للمياه في ذلك المكان القريب ماؤه، سوف أراها تثج الماء ثجًا، وسوف أرى حقول البرسيم العملاق، تتأود ذات اليمين وذات الشمال.

وسوف أرى نماذج من الأعراب الساذجين تذكرني رؤيتهم بنماذج رأيتها في دنيا التاريخ لا تبعد أوصافهم كثيرًا عن

---

(١) كتبت في يوم الاثنين ٢٦/٧/١٣٧١هـ ٢١ إبريل ١٩٥٢م.

أوصاف العرب الأولين سكان هذه البلاد إلا أن أؤلئك كانوا رُحلا، وهؤلاء هم الآن من المقيمين.

رحت أمَنِّي نفسي، وأعللها بتلك الأشياء، ولم أدر أن القدر كان يضحك من حمقي في تسرعي في الحكم على الأشياء التي ستكون.

غادرنا البلد أصيلا، وكانت السماء تجللها في بعض النواحي قطع من السحب الصغيرة الداكنة التي ينذر محياها بالخطر، ولكن لا يفهم لغتها إلا فهيم!

ووصلنا في أحسن حال فحتى الشمس التي كانت أشعتها تدغدغ عراقيبنا التي تظهر من الحذاء لأن وجهتنا هي إلى الشرق كانت في بعض الأحيان تختفي وراء إحدى الغيمات الصغيرة إلا أن تلك القطع من السحاب أخذت تتسع وتلد قطعًا أخرى.

وبين غمضة عين وافتتاحتها ولا أدرى كيف حدث ذلك فلم نرقب السماء بدقة اختفت الشمس، وغابت معها السماء، وجلل السحاب الداكن صفحة السماء كلها.

وفي أقل من قليل كان هزيم الرعد يملأ الفضاء، وبدأ هزيمًا مألوفًا أول الأمر، ولكنه أشتد وأخذ يدمدم ويزمجر، وكأنه يتوعد

ويهدد، ولا ندري من الذي يقصده بتوعده وتهديده، وتطاير البرق بين جنباته كما يتطاير الشرر من الحديد الموشك على الذوبان.

وجعلت انظر من خلال الظلام الذي أطبق على الكون فأرى أن الأرض الداكنة عند الأفق لا يبعد لونها كثيرًا عن لون السحاب.

ولكن هل وقف الأمر عند هذا الحد؟

لا إنه لم يقف فإن الذي كدر صفونا غير هذا فهذا على ما فيه في تكدير لا يخلو من جمال مبعثه جلال الهيبة للكون عندما يريد أن بتمخض عن أمر عظيم.

إن ذلك الجو مزيج من الجمال والرهبة، ولكن الشيء الذي ليس فيه من الجمال شيء، أو أنه لم يدعنا ننظر إلى جماله وجمال الجو معه هو ما بعد ذلك :

لقد أرادت الريح أن تسهم في هذا الفرح: فرح عرس السماء على الأرض. فهبت بكل قوتها تقسر بنات الأرض من الرمال والأتربة تأخذ بضبعها لكي تنتصب قائمة وترقص في هذا العرس العجيب.

فأجابت فعلاً بالامتثال ولا ندري أمكرهة هي على ذلك أم طائعة؟

فأقبل التراب بقاماته المنتصبة وحاول بمزاحه الثقيل أن يداعبنا، بأن يراقصنا ويجعلنا نرقص كما يرقص ولكن أنى ذلك!

ومتى كان الإنسان مراقصاً للتراب؟

وأخذت الريح تجعل من فروع النخيل، وأغصان الأشجار آلات موسيقية، تضرب بعضها ببعض، وتقرع بعضها ببعض، فتحدث أصواتًا إن كانت قد أطربت الجو، وعروس الجو، فما أطربتنا نحن الآدميين.

واستمر ذلك، واستمر معه قلقنا على عيوننا من التراب، وعلى ملابسنا من الماء، وعلى دورنا بعد الإياب.

وجعلنا رؤوسنا بين ركبنا وأدرنا ظهورنا لحفل الجو الغريب.

أدرنا له ظهورنا، والظهر في الإنسان أشبه جسم الإنسان بالأرض إن كان في جسم الإنسان ما يشبه الأرض.

وهدأنا قليلاً ولكن الذي أقض مضاجعنا، أو على الأصح مقاعدنا هو الخاطر الذي خطر في نفوسنا وهو أليس من الممكن أن تتعب إحدى هذه النخلات من الرقص فتسقط علينا لتستريح؟

وجاء جواب العقل: بلى، إنه من الممكن، بل من الواقع الكثير أن حدث مثله. ومع ذلك قلنا لنجلس هنا، وتجرع

كأس من الألم أهون من تجرع كأسين ولبثنا مدة لا ندري أطالت أم قصرت في نفس الأمر وفي الواقع، ولكنها طالت علينا طولاً زائدًا عن الحد، والذي دلنا عليه هو نظرنا إلى الساعة بعد أن استطعنا النظر فيها بعد عناء كبير.

وعندما قارب (الحفل) أن ينتهي نزلت أسواط من السماء على عرائس الريح تلهب أعناقها ولا ندري ما الذي دعاها إلى ذلك، وهل هذا لكونها غير خاضعة للنظام، أو غير مطيعة للأوامر، أم أنها في هذه المرة قد أخذ منها الطرب مأخذه فأبت أن تتصرف بسرعة كما نريد لها نحن أن تتصرف؟

وفي أقل القليل أيضًا تلاشت تلك العرائس الراقصة وأخذت سياط الماء تكيل الضربات المتتابعة للأرض إلا أنها كانت تتصارع مع الريح، فكانت الغلبة تارة لها وتارة للريح فالرياح تصرف ذوائبها من مكان إلى مكان آخر.

وبعد قليل هدأت الحال، وتغير كل شيء في الأرض ولكن الذي في السماء لم يتغير فما زال السحاب يهدر ويقذف بشقاشقه الأرض، ومازال البرق يلمع، كما تلمع القنابل عند تفجرها.

والتفتنا يمينًا وشمالاً بل جلنا بأبصارنا إلى الجهات

الخمس نبحث في السحاب عن ثغرة نرى منها السماء فلم نجد، وعند ذلك حزمنا أمرنا على أن نعود إلى البلد، فالوقت يقارب أن يفوت ـــ الوقت الذي كان أملنا ألا تتجاوزه نزهتنا، وأخوف ما نخاف أن يسلمنا ظلام السحاب إلى ظلام الليل. حزمنا أمرنا على أن نعود إلى البلد متى فتر هبوط المطر، ولو لم يَبْدُ على السحاب أي وهن أو تلاش.

وانتهزنا الفرصة التي لم يدم طويلاً انتظارنا لها، ومشينا عائدين، وكنا قد قطعنا حوالي خمسة كيلات قبل أن نصل إلى غايتنا وعلينا ـــ تبعًا لذلك ـــ أن نقطع في هذا الجو الغاضب خمسة كيلات أخرى مشيًا على الأقدام.

مشينا ولكننا لم نكد نمشي حتى سقط المطر، وكأنما يقذف به من السماء قذفًا، حتى لقد أحسسنا أنه ليس مطرًا ولكن بَرَدًا.

وبحثنا عن النخل فإذا هو منا بعيد وهو يعود بنا القهقري فتوكلنا على الله، وتشجعنا، وتصايحنا وتضاحكنا ـــ وإن من البلية ما يضحك ـــ وجلسنا على الأرض، وسرعان ما وقف هطول المطر يا الله هل هو يسخر بنا؟

لقد اجتمع المطر الذي ينزل عادة في مدة خمس دقائق،

فنزل في دقيقتين ليلهب هامنا بسياطه الباردة.

ومشينا لا بل عَدَوْنا عَدْوًا وما كان أشد فزعنا حينما رأينا الجو من جهة المغرب قد تغير، وقد ظهر فيه ما يشبه الدخان، إنه مطر هكذا قلنا، وأسرعنا نعدو، ولكن لا مَعْدَىٰ من أمر الله.

ووصل المطر. وأمطرنا مرة ثانية، وسرعان ما وقف نزوله، وفرحنا وكان الجو منعشًا والهواء مشبع بالرطوبة ولولا ما في الجو من النسيم المنعش لما استطعنا حراكًا.

وجعلنا نحمد الله ونضحك، ولكن الجو كان يضحك منا لا طربًا بضحكنا، ولكن سخرية منا فيما بدا لنا.

لقد أقبلت ريح شديدة من جهة المغرب ــ الجهة التي نقصدها ــ لقد اقبلت الريح من تلقاء وجوهنا لكي تعيدنا أدراجنا، ولكن أنى لها ذلك!

قلنا نحن: أنى لها ذلك: ولكنها قالت هي: سوف أريكم كيف ذلك: واشتد هبوبها، بل عصفها، فأدرنا لها ظهورنا بعد أن عجزنا عن مواجهتها إلا أن ذلك لم يغن شيئًا فهي تريد أن تلقينا أرضًا، فجلسنا وسرعان ــ أي والله هكذا وقع ــ ما خَفَّتْ عواصفها، وكنا نمشي نُغالب مؤخرة العاصفة، وهو على كل حال غير نشيط ولذلك رضى بأن يتأخر في قافلة العاصفة.

وهكذا استمر مشينا والعواصف تواجهنا ولكنها لا تردنا لأنها ليست كالعاصفتين السابقتين.

ووصلنا إلى البلدة بعد التعب الشديد وقد أصبحت الكيلات الخمسة بمثابة الخمسين، ودخلناها راضين من الغنيمة بالإياب!

«حينـــما اكتب»[1]

انني حينما اكتب في موضوع من الموضوعات ولا سيما حينما يكون ذلك الموضوع من الموضوعات الاجتماعية أو الأدبية، فإنني أكتب فيه ما يمليه علي خاطري، وما يفيض على قلمي من فكري بحسب أثر ذلك الموضوع في نفسي وأنا اسجل أثر ذلك الموضوع في نفسي بدون أن ألقي بالاً أو اتأثر أقل تأثر بشيء خارج عن نفسي.

بل إنني إذا ما قرأت في موضوع وعلق في نفسي شيء من أثر ذلك الموضوع تركت الكتابة فيه جميعها ورحت أبحث أو على الأصح أتخير موضوعًا آخر غيره اكتب منه ما يوحيه إليَّ خاطري، بدون أن أتأثر فيه بأحد. ذلك بأنني اعتقد أن الإنسان عندما يكتب في موضوع اجتماعي ـــ مثلاً ـــ فيراجع فيه كافة المراجع، ويستوعب كثيرًا مما كتبه فيه الكاتبون بل ربما يتعدى إلى أكثر من ذلك، فيلتمس ذلك فيما كتبه الغرّبيون والشرقيون والقدامى والمحدثون اعتقد أن مثل ذلك لا يسمى كاتبًا وإنما يسمى باحثًا لأنه لابد إذا كان إنسانًا

---

(١) كتبت في يوم الأربعاء ٢١/٧/١٣٧١هـ ١٦ إبريل ١٩٥٢م.

شفاف الذهن، نفاذ البصيرة من أن يتأثر بذلك المكتوب، وأن تعلق بذهنه آثار مما طالعه ولو تخير من المذاهب ما يراه موافقًا لميوله وحائزًا لديه القبول.

ولذلك فإن الاتجاه الذي يتجهه، والمنهج الذي ينهجه يكون الفضل فيه راجعًا إلى من قرأ لهم وتأثر بهم.

وليس كذلك الكاتب الذي يزن الأشياء بميزانه الخاص، ويستقل بتفكيره، وتأثره وتأثيره.

ليس كذلك الكاتب الذي يتصل بالحياة: يتأثر بالحياة، ويأخذ من الحياة، ويعطي الحياة.

ليس كذلك الكاتب الحر الذي يغترف من النبع الذي اغترف منه الكاتبون، ويصدر عن المصدر الذي صدروا عنه ألا وهو الحياة.

إن ركود الأدب وإن خمود الذهن، وإن مصيبة التفكير من مثل ذلك التفكير والكتابة التي تترسم خطا الآخرين، وتقتات على فتات موائدهم، وقد تعمد إلى ما صنعوه من لوحات فنية جميلة استوحوها من الحياة فتحاول أن تصفها وتنظمها.

نعم، إن مثل ذلك الكاتب يجب ألا يسمى كاتبًا، وإنما يجب أن يسمى باحثًا، وللباحث فضل، ولكنه ليس كفضل

الكاتب الذي يبرز للناس ما خفي مما لم يرسمه غيره على طريقته قبل ذلك، أو مما رسم ولكنه بريشة غير ريشته. على أن نضيف أن من المستحسن أن يوصف ذلك الباحث بوصف الباحث في آثار الكاتبين لا الباحث في الحياة، الذي يظهر من اللاشيء شيئًا، من اللاشيء عند الناس العاديين شيئاً ينفذ إلى أعماق الحياة فيستخرجه منها ببصيرته النفاذة.

وأعود مرة ثانية إلى الاعتراف بأنني لم أفعل ما فعلت أي: لم أتجرد من جميع المؤثرات عندما أريد الكتابة لنصيحة الناصحين بل إنني رأيت ذلك من نفسي لنفسي على رغم نصائح الناصحين التي تقول بعكس ذلك. تنصحني بأن أكون دائم المطالعة والقراءة للكاتبين. وليس في ذلك بأس لو أن الأمر وقف عند هذا الحد فلا غضاضة على من يريد أن يطالع ويقرأ الآثار التي تحمل على التفكير بعد مطالعتها، وتحبب النظر إلى الحياة من منظار الحياة.

ولكنهم علموني كما علموا غيري ألا ابتغى غير ذلك.

علموني ألا أطمع في أن اتجاوز أعتاب أولئك الكتاب، وأن كل وظيفتي في الحياة وفي الكتابة إذا ما أصبحت كاتبًا ــ إن أصبحت كذلك ــ كل وظيفتي أن أترسم خطاهم، فأعلم ما وافق فيه فلان فلانًا، وما خالفه فيه، وطريقة فلان في الكتابة،

وطريقة فلان الآخر، وأيهما كان قبل الأول ــ مثلاً ــ.

وذلك كان هو المثل الأعلى في الكتابة لدى أكثر الناس، أما بعضهم الذين كانوا أكثر انصافاً، وأكثر امعانًا في الأدب فهم يقولون: إنه جميل بالإنسان أن يكون كاتبًا في الحياة، ناجحًا في الكتابة، ولكن متى يكون كذلك؟ وانى يكون ذلك!

هيهات أن يلحق شأو الكتاب الأولين، أولئك يعقم الدهر قبل أن يلد مثلهم.

ولكن حتى هؤلاء لم ترضني طريقتهم فأنا اكتب لا لأكون كاتبًا مثل أولئك الكتاب أو أجتهد لكي أصبح مثلهم لا فليس هدفي من كتابتي مثل ذلك. ولكن هدفي منها أن أسجل ما أراه وألاحظه في الحياة.

وذلك لأن الحياة فيها ما يغرب ويعجب، وفيها ما فيه عبرة وما فيه منفعة وما فيه مضرة، فمعرفة النافع في الحياة للإكثار منه، والتعرف عليه ومعرفة الضار لاجتنابه.

فأنا اكتب لكي اقرأ ذلك لنفسي التي كتبت ما كتبت لها وحدها.

إنني أكتب أيضاً ولا يعنيني أن يكون هناك أحد يشاركني

شعوري بما أرى أو أسمع أو اكتب ــ وعلى الأخص في الوقت الحاضر ــ فأنا اكتب لأقول لنفسي: هذا رأيي وكفى.

وإذا كان الذهن يفرض المحال وافترض أن أحدًا استفتى أهل الدنيا وله الحق في ذلك عن رأيهم في الدنيا فإن لكل واحد منهم أن يقول رأيه فيها بصراحة. وإن ما أكتبه هو رأيي فيما اكتبه بصراحة.

وإنه يمثل ــ بلاشك ــ رأي ابن من ابناء الحياة في الحياة.

بل هو يمثلني أنا كما قد يمثلني غيره فلكل طور من أطوار حياة الإنسان نظرة في الحياة ونظر إلى الحياة. وهذا ــ أي كونى اكتب غير متأثر بأحد ــ هذا هو سر كوني لا أكثر من الشواهد على ما أكتب من كلام الحكماء والعلماء، وإنما استشهد عليه بالحجج المنطقية والأدلة المحسوسة أو المفهومة وانني بذلك أحيل منْ عساه يطلع على كلامى أو يسمعه، احيله إلى نفسه، إلى عقله لكي يجرب كما جربت إذا لم يؤمن بما قلت: وليحكم عقله فيما كتبت، وليزن تلك الحجج بما يزن به الناقد المنقود.

وإنني اكتب حين اكتب أيضًا لكي أريح نفسي من اختزان ما ألاحظه على هذه الحياة فليس من السهل عليَّ أن ألاحظ

شيئًا فيهز شعوري، ويوقظ الحاسة الشعرية في نفسي فيعجبني ويطربني، أو يشجيني ويحزنني، ثم لا أسجل ذلك بل أدعه يذهب سدى.

ليس ذلك بالسهل عليَّ بل إنه أصعب شيء علي بل إن كونه يذهب بدون تسجيل هو أمر مصدر عذاب لي ومصدر تكدير لصفوي.

ولذلك فإنني قد أكتب في بعض الاحيان هربًا من الألم وليس تحصيلاً لللَّذة.

وقد جربت أن ذلك كما يكون سياجًا دون الألم يكون جسرًا إلى اللذة فإنني عندما أقف قليلاً، وأطالع بعض ما كتبت أجد المتعة التي لا أحس من نوعها متعة أخرى، أجدها في الرجوع إلى دنيا الذكريات، والتحليق في أجواء الماضي. والماضي جميل على كل حال سواء ما كان جميلاً في حاضره، وما كان غير جميل في حاضره فالجميل جميل لأنه كذلك، وغير الجميل جميل التخلص منه، وفرح النفس بمفارقته والاعتبار به، ومعرفته لأجتناب أسباب تكراره.

وليس معنى ما تقدم أنني أحبذ أن يكون الرجل جاهلاً بما كان عليه الأولون، أو بما قاله الحكماء، والفلاسفة الأقدمون أو

المعاصرون، بل أقول، إنه يجب أن يقرأ الرجل، ويقرأ، ويقرأ، حتى إذا ظن في نفسه الأهلية للكتابة، أو وجد في نفسه ميلاً إليها كتب، ولكن بدون أن يتأثر بغيره فما يكتب.

على أنني أعني بالتأثر بالغير الاعتماد على الغير. أما التأثر بالشخص في الكليات، وفي أصول الكتابة فهذا ما لا بأس به، بل هو مشروط للشخص ما دام في شباب الكتابة، وفي أولى مراحل تكوين الكتابة.

«لــو قـــيل لــه» أو «حــلم أديــب»[1]

قال لي صديقي الأديب :

ياصديقي، سوف أتمنى وأرجو أن لا تقاطعني، أو تعترض على رأيي فرأيي هو رأي، وهو لي وحدي ولمن شاء أن يشاركني رأيي. أما أنت فإنني أرجو أن يكون دورك هنا دور عارض الرأي. مسجل الفكرة: قلت: لك ما تريد مادام أن رأيك رأي أدبي قد يمتطي الخيال المجنح، ويرتدي ثوب التصور الذي لا يصير.

فبدأ كلامه وقال :

«لو» ــ وجميع مسؤلية هذه الفكرة تقع على عاتق «لو» هذه ــ لو نزل إليَّ ملاك في عالم الحقيقة أو الخيال مفوض ممن يملك أن يفعل ما يقول: فقال: هل تحب أن تكون من الخالدين؟

لقلت: نعم، أحب ذلك بالطبع.

ولوقال: إذاً لتخلد في قائمة المخترعين العالميين الذين أفادوا البشرية كلها باختراعاتهم، والذين ستصبح الدنيا غير الدنيا لو تجردت من اختراعاتهم.

---

(١) كتبت في يوم السبت ٢٨/٧/١٣٧٠هـ ٥ مايو ١٩٥١م.

ليخلد اسمك بجانب اسم (اديسون) المخترع الأمريكي العظيم الذي بلغت اختراعاته الالفين، وبجانب العلامة (بستور) الفرنسي الذي اكتشف الجراثيم، ودرس اطوار حياتها.

هل توافق على ذلك؟

لقلت: لا، لا أوافق على ذلك.

ولوقال: إذًا، ليخلد في قائمة المصلحين الاجتماعيين الذين أحالوا المجتمعات من حالة القلق والاضطراب والظلم والاستبداد إلى حالة العدالة والطمأنينة والمساواة، هل توافق على ذلك؟

لقلت : لا.

ولو قال: إذًا ليخلد اسمك في قائمة الملوك الفاتحين والابطال المحاربين من غير المسلمين الذين كسبوا لأممهم الفوز العظيم، وحققوا لها الانتصارات المتتابعدة الخالدة، امثال هنيبال الفنيقي، وبختنصر الكداني ونابليون الفرنسي وغيرهم، أتوافق على ذلك؟ لكان جوابي بالنفى.

ولو قال لي: هل تحب أن يكون اسمك خالدًا بجانب اسماء أساطير الفلاسفة العالميين الذين كشفوا للعالم النقاب عن اشياء كان يجهلها، وخاضوا على سفائن عقولهم في لجج الأكوان. واجتازوا بأفكارهم أعتاب ما وراء الطبيعة، أمثال ارسطو، وسقراط. والمعري. أتوافق على ذلك؟ لقلت لـه: لا، لا أوافق على ذلك!

ولو قال: فليكن ــ إذاً ــ مع الرحالين المشهورين والمكتشفين المعروفين أمثال ابن بطوطة وكريستوفر كولومبس. وماجلان وأمثالهم؟

لقلت: لا لايكن مع أولئك، ولا تطل التعداد فإنني أخشى أن يطول تعدادك لأنواع الخالدين قبل أن تصل إلى الطائفة المختارة التي أحب.أن أكون منها كما تعبر أنت، أو أن أخلد معهم كما أعبر أنا.

إنني أحب أن يخلد اسمى ــ إذا كان لا بد من الخلود ــ بجانب أسماء أولئك الجماعة من الأدباء العالميين، أولئك الجماعة من الأدباء الذين صوروا العواطف الإنسانية فوفقوا في التصوير، وعبروا عن احساسات إخوانهم من بني البشر فأحسنوا التعبير، وتكلموا عني وعنك قبل أن أخلق ولا أدري أيصح أن أقول: وقبل أن تخلق.

بمعنى أنهم تكلموا عن عاطفتي وإحساسي قبل أن أخلق، فإذا بعاطفتي واحساسي بعد أن خلقت وجعلت أحس تكون مثلما تكلموا به وما رسموه.

اولئك النفر الذين رزقوا رهافة الحس، ولطف الروح، ونفاذ البصيرة إلى أغوار النفس الإنسانية ومجاهلها، بما في تلك

الأغوار والمجاهل من رغبات ورهبات وآلام وآمال واحساسات وأطوار وأحوال. أولئك النفر هم الأدباء الخالدون، لأنهم الذين يناجون الشعور، ولا يناجون المصلحة.

أولئك هم الذين تبقى آثارهم ما بقى الناس لأن الإنسان سوف تبقى معه عواطفه واحساساته، ومشاعره وميوله التي يشترك فيها مع إخوانه من بني الإنسان وسوف تبقى تلك الأصوات التي تنادي شعور الإنسان بشعور الإنسان ما بقى الإنسان.

إن جزءًا كبيرًا من الناس لا يتمتع بمخترعات (اديسون) ولا بمكتشفات (بستور) ولا بفلسفة ارسطو، لكنه لا يوجد آدمي لا يستجيب لداعي الشعور، ومناجاته بحسب ما تسمح به تربيته وظروفه الخاصة، ووسطه الذي يعيش فيه.

ولكي تعذرني ــ يا حضرة الملاك الكريم ــ في اختياري هذا أرشدك إلى أي قطعة أدبية صادقة لتترجمها إلى أية لغة من لغات بني الإنسان بشرط أن تكون ترجمتك لها ترجمة صحيحة يفهمها الإنسان تمام الفهم لتجد أن جميع أولئك الآدميين يتأثرون بتلك القطعة ويطربون لها ويشاركون كاتبها إحساسه وشعوره.

ولذلك فإن الأديب أو الشاعر كلما كان أصدق شعورًا، وأكثر رهافة في الحس، أو بعبارة الأدباء كلما كان أكثر أصالة في الفن كان شاعرًا عالميًا يجتاز به شعره الصادق حدود الطائفية والشعوبية والإقليمية، وفوارق الدين والجنس واللغة.

وهذه الأمثال الكثيرة على ذلك ماثلة أمام العيان فيما كتبه الجاحظ وشكسبير والمتنبي ولامرتين وتشيكوف وغيرهم ممن يشبهونهم.

قال: وعندما وصل الحديث مع حضرة المفوض إلى هذا الموضع سكت أنا وسكت هو. ولا أدري هل اقتنع بوجهة نظري، أم أنني اقتنعت بأنني في منام أوفي ذهول!!

«دع عنـــك الكتــابة»[1]

«فدع عنك الكتابة لست منها ولو خضبت وجهك بالمداد»

نعم ياصاحبي دع عنك الكتابة فإن للكتابة شروطاً لم تحصل عليها، وإن للكتابة لواجباتٍ لم تقم بها، شروط الكتابة لم تحصل عليها وإذا عدم الشرط عدم المشروط.

وقد تقول كما قلت إنني لم أحصل على شروط الكتابة كما تقول ولكنني لم أعدم الكتابة ها أنا أكتب وها أنا أكتب كثيرًا ألم أكتب وألم تكن لي كتابة على الرغم من قولك إنني لم أحصل على الكتابة؟

بلى يا صاحبي إنك تكتب وتحصل على كتابة وكفى بقولى كتابة فحسب عن التعريف بتلك الكتابة. أنت تكتب كتابة ولكنها ليست الكتابة التي يكتب مثلها الكتاب الكاتبون.

أنت حينما تكتب تلك الكتابة إنما تكتب بيدك وقلمك إقراراً بعجزك عن الكتابة.

---

(١) كتبت في يوم السبت ١٠/٧/١٣٧١هـ ٥ إبريل ١٩٥٢م.

إنك تسجل على نفسك حين تكتب اعترافًا بعجزك عن الكتابة وإن كنت تظن أنك تكتب ادعاءً لها.

إنك تنفي عن نفسك الكتابة حينما تكتب وإن كنت تدعي أنك تثبت معرفتك بالكتابة.

إذًا فأنت يا صاحبي لم تكتب ولكنك تسعى بدون وعي منك إلى أن تحيط الناس علمًا بأنك لم تكتب وأنك لا تستطيع أن تكتب.

إن أولى بك يا صاحبي وقد جربت حظك في الكتابة وعجزت عن السير في ميدانها إلا ميدان تلك الكتابة المزعومة منك زوراً وباطلاً أنها كتابة إن أولى بك أن يكون ذلك زاجراً لك عن الكتابة قبل أن تحصل على شروط الكتابة.

وقبل أن تتوفر فيك شروط الكتابة وقبل أن تقوم بالواجبات التي تفرضها عليك الكتابة.

وإن من واجبنا نحن الذين نعلم أنك لا تحسن الكتابة أن نقول لك إنك لا تحسن الكتابة.

إن من واجبنا أن ننصحك عن كتابتك وها نحن نفعل. إننا

ننصحك عن هذه الكتابة والدين النصيحة. وإننا حينما ننصحك عن هذه الكتابة، فإنما نأخد بيدك إلى الكتابة الصحيحة التي تستحق أن تسمى كتابة.

إنك ياصاحبي حتى الآن لم تقطع الطريق الواجب قطعه إلى ساحة الكتابة وإن حاولت ان تقفز إليها لتطير فإنك لا بد ساقط ولا يبعد أن يكون سقوطك على أم رأسك واصلاً بك إلى ساحةٍ غير ساحة الكتابة، وإن كنت تظنها هي ساحة الكتابة وهذا شيء أضر عليك وعلى الكتابة من الانقطاع عن الوصول إلى ساحة الكتابة.

إن من واجب الكتابة علينا نحن أنصار الكتابة أن نحك من هيكلها اسماء الأدعياء في نسب الكتابة كما أن من واجبنا أن نكتب على هيكل الكتابة اسماء وأنباء الكتاب الذين لم يدعوا تواضعًا أنهم من أبناء الكتابة. أما إذا اصررت ياصاحبي على الكتابة فليكن ذلك في دنيا أحلامك ليكن في عوالم الخيال وبالخيال متسع لما تضيق به دنيا الواقع وبذلك تخادع نفسك ولا تجني على الكتابة.

أما أن تخادع نفسك وتخادع غيرك من أنصار الكتابة الذين لا يحذقون حدود الكتابة، فذلك ما لا يستطيع أن يدعك تفعله أنصار الكتابة الذين خدموا الكتابة ونصبوا أنفسهم للدفاع

عن الكتابة ولذا فأنا أقول ناصحًا مؤديًا بنصحي لك واجبي نحوك ونحو الكتابة :

فدع عنك الكتابة لست منها ولو خضبت وجهك بالمداد

«بأيهـــا ابــدأ؟»[1]

الدنيا والحياة كلها موضوعات صالحة للكتابة، كل ما يتعلق به فكرك، وكل ما يقع عليه نظرك، وكل ما يصل إليه سمعك كل أولئك موضوعات صالحة فبأي أحدها ابدأ؟

إنني إذا ما أردت أن ابدأ باحدها صاح بي الآخر: بي فلتبدأ وكثيرًا ما تكون النتيجة أن لا أكتب في شيء منها.

إن تزاحم الأفكار قد يكون في بعض الأحيان سببًا لضياعها جميعها. وهذا ما يجعلني في بعض الأحيان لا أكتب.

على أن هناك شيئًا بل أشياءَ كثيرة تجعلني لا أكتب ومنها ضيق الوقت، وعدم الفراغ للكتابة.

وعلى كل حال فإن الكتابة بالنسبة لي ليست إلا شيئًا ثانويًا يشتاق إليه خاطري كلما بعد عهدي به وذلك بعد أن جربته واستسهلت مرقاه.

هذا إلى أن كتابتي ليست هي الكتابة التي تتطلب من صاحبها التفكير العميق أو كد الذهن لأنني لا أكتب للقراءة وإنما أكتب للكتابة إن صح هذا التعبير.

---

(١) كتبت في يوم الجمعة ٢٣/٧/١٣٧١هـ ١٩ إبريل ١٩٥٢م.

فهرس الموضوعات

مطابع الفرزدق التجارية - الرياض
تلفون : ٤٨٢٤٨٦٥ - ٤٨٢٤٩٨٣